تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي
أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

الجزء الحادي عشر

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى
١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

الجزء الحادى عشر

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ، قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ، فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح المفردات

الغيب : ماغاب عنك علمه ، والشهادة : ماتشهده وتعرفه ، الانقلاب: الرجوع، رجس : أى قذر يجب الإعراض عنه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عزّ اسمه من يستحقون اللوم والمؤاخذة من المعذرين ، ومن لاسبيل إلى مؤاخذتهم وعدم الحرج عليهم ـ ذكر فى هذه الآيات ماسيكون من أمر المنافقين الذين تخلفوا فى المدينة وما حولها عن غزوة تبوك مع الرسول صلى الله عليه وسلم بعد عودتهم .

الإيضاح

(يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم) أى سيعتذر إليكم أيها المؤمنون أولئك الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، وهم أغنياء أصحاء لاعذر لهم عن التخلف عن الغزو وغيره من سيئاتهم عند رجوعكم من السفر .

(قل لاتعتذروا لن نؤمن لكم) أى قل لهم أيها الرسول لاتعتذروا إنا لن نصدقكم فى معاذيركم أبدا ولن نطمئن إليكم .

ثم بين السبب فى عدم تصديقهم فقال :

(قد نبأنا الله من أخباركم) أى قد أنبأنا الله بوحيه إلى رسوله بعض أخباركم التى تسرونها فى ضمائركم وهى مخالفة لظواهركم التى تعتذرون بها ، ونبأ الله هو الحق الذى لاشك فيه ، ومن عرف الحق لايقبل الباطل ولا يصدق الكاذب .

وإنما قال نبأنا ولم يقل نبأنى إيماء إلى أنه أمره أن ينبئ بذلك أصحابه ولم يكن هذا النبأ خاصا به ، كما أن اعتذارهم للجميع يقتضى أن يكونوا كلهم عالمين بما فضحهم الله به ، وفى هذا من التشهير بهم والخزى لهم ما لاخفاء فيه .

(وسيرى الله عملكم ورسوله) أى وسيرى الله عملكم ورسوله فيما بعد ، وهو الذى سيدل إما على إصراركم على النفاق أو على التوبة والإنابة إلى ربكم، وأما أقوالكم فلا يعتد بها مهما وكدتموها بالأيمان ، فإن أنتم تبتم وأنبتم إلى ربكم وشهد لكم عملكم بصلاح طويتكم ، فإن الله يتقبل منكم توبتكم ، ويغفر لكم حوبتكم ، ويعاملكم

الرسول بما يعامل به المؤمنين الذين أخلصوا وصدقوا وشهدت لهم أعمالهم بذلك ، وإن أنتم أبيتم إلا الإصرار على النفاق وإلا الاعتماد على رواج سوق الكذب بتلك الأيمان التى تحلفونها فسيعاملكم الرسول بما أمره الله به من جهادكم والإغلاظ عليكم كإخوانكم الكفار المجاهرين .

وفى هذا إيماء إلى الرغبة فى توبتهم حين سنوح الفرصة .

(ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) أى ثم تردون يوم القيامة إلى عالم الغيب والشهادة الذى يعلم ماتكتمون وما تظهرون ، فينبئكم حينئذ بما كنتم تعملون ويجازيكم عليه بما تستحقون وهو ما أوعدكم به فى كتابه الكريم فى هذه السورة وفى غيرها « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » .

وفى الآية إيماء إلى أنه ينبغى تحامى كل مايعتذر منه من ذنب أوتقصير، وقد ورد فى الحديث « إياك وما يعتذر منه » .

ثم أكد ماسبق من نفاقهم بقوله :

(سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم) أى سيؤكدون لكم اعتذارهم بما يحلفون به من كاذب الأيمان إذا انقلبتم من سفركم ورجعتم إليهم لتعرضوا عن العتب عليهم والتوبيخ على قعودهم مع الخالفين من العجزة والنساء والأطفال وعلى البخل بالنفقة والمال .

(فأعرضوا عنهم) أى فأعرضوا عنهم إعراض الإهانة والتحقير ، لا إعراض الصفح وقبول العذر . روى مقاتل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال حين قدم المدينة « لاتجالسوهم ولا تكلموهم » .

ثم علل هذا بقوله :

(إنهم رجس) أى إن فى نفوسهم قذرا معنويا يجب الاحتراس منه خوف سريان عدواه ، وميل النفوس إليه كما يحترز صاحب الثوب النظيف من الأقذار الحسية التى ربما تصيبه إذا لم يحتط لها .

(ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون) أى وملجؤهم الأخير نار جهنم جزاء لهم بما كسبوا فى الدنيا من أعمال النفاق وغيرها مما دنس نفوسهم ، وزادهم رجسا على رجسهم .

ثم زاد فى تأكيد نفاقهم فقال :

(يحلفون لكم لترضوا عنهم) أى يحلفون لكم لتستديموا معاملتهم بظاهر إسلامهم ، وهذا أهمّ الأغراض لديهم فلا حظّ لهم من إظهار الإسلام سواه ، ولو كان إسلامهم عن يقين واعتقاد لكان غرضهم الأول إرضاء الله ورسوله .

(فإن ترضوا عنهم فإن الله لايرضى عن القوم الفاسقين) أى فإن ترضوا عنهم كما أرادوا ، وساعدتموهم على ماطلبوا فإن رضاكم عنهم لايجديهم نفعا ، فإن الله ساخط عليهم بسبب فسوقهم وخروجهم عن أمره ونهيه .

وفى هذا إيماء إلى نهى المخاطبين عن الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم الكاذبة وأن من يرضى عنهم من المؤمنين يكون فاسقا مثلهم محروما من رضوان الله ، وأن من يتوب منهم ويرضى الله ورسوله يخرج من حدود سخطه ويدخل فى حظيرة مرضاته ولا يعدّ حينئذ فاسقا .

روى عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت فى الجدّ بن قيس ومعتّب بن قُشير وأصحابهما من المنافقين وكانوا ثمانين رجلا ، أمر النبى صلى الله عليه وسلم المؤمنين لما رجعوا إلى المدينة بألا يجالسوهم ولا يكلموهم . وقال قتادة : إنها نزلت فى عبد الله ابن أبىّ فإنه حلف للنبى صلى الله عليه وسلم بعد عودته ألا يتخلف عنه أبدا وطلب أن يرضى عنه فلم يفعل .

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ، وَاللَّهُ

سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ، أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩)

شرح المفردات

الأعراب : اسم لبدو العرب ، واحده أعرابى والأنثى أعرابية ، والعرب اسم لهذا الجيل الذى ينطق بهذه اللغة بدوه وحضره : واحده عربى، والمغرم: الغرامة والخسران، من الغرام بمعنى الهلاك ، والدائرة : مايحيط بالشىء والمراد بها مالامحيص منه من تصاريف الأيام ونوائبها التى تحيط شرورها بالناس ، والدائرة أيضا : النائبة والمصيبة ، والسوء : اسم لما يسوء ويضر ، والقربات : واحدها قربة ، وهى فى المنزلة والمكانة كالقرب فى المكان والقرابة فى الرحم ، والصلوات : واحدها صلاة، ويراد بها الدعاء .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال العرب مؤمنيهم ومنافقيهم ، بين فى هذه الآيات الثلاث أحوال الأعراب مؤمنيهم ومنافقيهم كذلك .

الإيضاح

(الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) أى إن طبيعة البداوة اقتضت أمرين :

(١) إن كفارهم ومنافقيهم أشد كفرا ونفاقا من أمثالهم من أهل الحضر ، ولاسيما من يقيم منهم فى المدينة ، فهم أغلظ طباعا وأقسى قلوبا لأنهم يقضون جل أعمارهم فى رعى الأنعام وحمايتها من ضوارى الوحوش – إلى أنهم محرومون من العلوم الكسبية والآداب الاجتماعية .

(٢) إنهم أحق وأحرى من أهل الحضر بألا يعلموا حدود ما أنزل الله على

رسوله من الهدى والبينات فى كتابه وما آتاه من الحكمة التى بيّن بها تلك الحدود تارة بالقول وأخرى بالفعل .

وكان صحابته فى المدينة وما حولها يتلقون عنه الكتاب حين نزوله ويشهدون سنته فى العمل به ، ويرسل عماله إلى البلاد التى افتتحت يبلغون الناس القرآن ويحكمون به وبسنة رسوله المبيّنة له - وكل هذا لم يكن مستطاعا لأهل البوادى ، ومن ثم كان الجهل فيهم أكثر لحال المعيشة البدوية .

روى أبو داود والبيهقى عن أبى هريرة مرفوعا « من بدا جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى أبواب السلطان افتتن ، وما ازداد أحد من سلطانه قربا ، إلا ازداد من الله بُعْدًا » ذاك أن السلاطين قلما يرضون عمن يصارحهم القول ويؤثرهم بالنصح ولا يزداد قربا منهم إلا المراءون الذين يعينونهم على الظلم ويثنون عليهم بالباطل .

(والله عليم حكيم) أى واسع العلم بشئون عباده وأحوالهم من إيمان وكفر وإخلاص ونفاق ، تامّ الحكمة فيما شرعه لهم ، وفى جزائهم من نعيم مقيم ، أو عذاب أليم .

(ومن الأعراب من يتخذ ماينفق مغرما) أى ومن الأعراب ناس كانوا ينفقون أموالهم فى الجهاد رياء وتقيّة ، ويعدون ذاك من المغارم التى يجب على المرء أداؤها طوعا أو كرها لدفع المكروه عن أنفسهم أو عن قومهم ولا منفعة لهم فيها لا فى الدنيا وهو واضح ولا فى الآخرة لأنهم لا يؤمنون بالبعث، قال الضحاك : هم بنو أسد وغطفان .

(ويتربص بكم الدوائر) أى ينتظرون أن تحل بكم نوائب الزمان وأحداثه التى تدور بالناس وتحيط بهم ، فتبدل قوتكم ضعفا وانتصاركم هزيمة ، فيستريحوا من أداء هذه المغارم لكم ، إذ يستغنون عن إظهار الإسلام نفاقا ، وقد كانوا يتوقعون ظهور المشركين واليهود على المؤمنين، فلما أعيتهم الحيل صاروا ينتظرون موت النبى صلى الله عليه وسلم ظنا منهم أن الإسلام يموت بموته .

(عليهم دائرة السوء) هذا دعاء عليهم بنحو مايتربصون به المؤمنين ، أى عليهم

وحدهم الدائرة السوء تحيط بهم دون المؤمنين الذين يتربصونها بهم ، وليس للمؤمنين عاقبة إلا مايسرهم من نصر الله وتوفيقه لهم ، وما يسوء أعداءهم من خذلان وخيبة وتعذيب لهم فى الدنيا قبل الآخرة .

(والله سميع عليم) أى والله سميع لما يقولونه مما يعبر عن شعورهم واعتقادهم فى نفقاتهم إذا تحدثوا بذلك فيما بينهم ، عليم بما يضمرونه من سرائرهم التى يخفونها ، وهو سيحاسبهم على مايسمع و يعلم من قول أو فعل وسيجزيهم به .

و بعد أن بيّن حال المنافقين من الأعراب ـ ذكر حال المؤمنين الصادقين منهم فقال :

(ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر) أى ومن الأعراب من يؤمن بالله و يثبت له القدرة وكمال التصرف فى الكون ، واليوم الآخر الذى تجازى فيه كل نفس بما كسبت ، قال مجاهد: هم بنو مُقَرِّن من مزينة، وهم الذين قال الله فيهم « وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ » .

(و يتخذ ماينفق قربات عند الله وصلوات الرسول) أى يتخذ ماينفقه وسيلة لأمرين:

(١) القربات والزلفى عند الله تعالى جدّه .

(٢) صلوات الرسول أى أدعيته ، إذ كان النبى صلى الله عليه وسلم يدعو للمتصدقين و يستغفر لهم ، ولم يجئ فى نصوص الدين انتفاع أحد بعمل غيره إلا الدعاء وما يكون المرء سببا فيه كالولد الصالح والسنة الحسنة يتبع فيها .

وسميت الصلوات الشرعية بهذا الاسم من قِبَل أن الدعاء (وهوالمعنى اللغوى لها) هو روحها ومخها وسرها الذى به تتحقق العبودية على أتم وجوهها .

وقد بين الله جزاءهم على ما انطوت عليه نفوسهم من صدق الإيمان و إخلاص النية فى الإنفاق فى سبيل الله فأخبر بقبول نفقتهم و إثابتهم عليها فقال :

(ألا إنها قربة لهم) أى ألا إن تلك النفقة التى اتخذت قد تقبلها الله وأثاب عليها بما وعد به فى قوله :

(سيدخلهم الله فى رحمته) أى سيرحمهم الله برحمته الخاصة بمن رضى عنهم، وهى هدايتهم إلى الصراط المستقيم الذى يوصلهم إلى جنات النعيم، والمراد بإدخالهم فى الرحمة أن تكون محيطة بهم شاملة لهم وهم مغمورون فيها، وهذا أبلغ فى إثباتها لهم من مثل قوله: «يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ».

(إن الله غفور رحيم) أى إنه واسع المغفرة والرحمة لمن يخلصون فى أعمالهم، فهو يغفر لهم مافرط منهم من ذنب أو تقصير، ويرحمهم بهدايتهم إلى خير العمل وحسن المصير.

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢)

شرح المفردات

رضى الله عنهم: أى قبل طاعتهم، ورضوا عنه: أى بما أسبغ عليهم من النعم الدنيوية والدينية، ومردوا: أى مرنوا وحذقوا.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه فضائل الأعراب الذين يتخذون ماينفقون قربات - قفى على ذلك بذكر منازل أعلى من منازلهم، وهى منازل السابقين من المهاجرين والأنصار

ثم ذكر بعدهم حال طائفة من المنافقين هى شر الجميع مرنت على النفاق وحذقت فنونه وحال طائفة أخرى بين المنزلتين خلطت سيء العمل بأحسنه ، وهؤلاء يرجى لهم التوبة والغفران من ربهم .

الإيضاح

(والسابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان) ذكر الله فى هذه الآية ثلاث طبقات من الأمة هى خيرها :

(١) السابقون الأولون من المهاجرين ، وهم الذين هاجروا قبل صلح الحديبية ، وقد كان المشركون يضطهدون المؤمنين و يقاتلونهم فى دار الهجرة وما حولها ولا يمكّنون أحدا من الهجرة متى كان ذلك فى طاقتهم ، ولا منجاة للمؤمنين من شرهم إلا بالفرار أو الجوار ، فالذين هاجروا فى ذلك الحين كانوا من المؤمنين الصادقين ، وأفضل هؤلاء الخلفاء الأربعة ثم العشرة الذين بشرهم النبى صلى الله عليه وسلم بالجنة .

(٢) السابقون الأولون من الأنصار ، وهم الذين بايعوا النبى صلى الله عليه وسلم عند العقبة فى منى فى المرة الأولى سنة إحدى عشرة من البعثة ، وكانوا سبعة ، وفى المرة الثانية ، وكانوا سبعين رجلا وامرأتين .

(٣) الذين اتبعوا هؤلاء السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار فى الهجرة والنصرة حال كونهم محسنين فى أفعالهم وأقوالهم ، فإذا اتبعوهم فى ظاهر الإسلام كانوا منافقين مسيئين غير محسنين فى هذا الاتباع ، وإذا اتبعوهم محسنين فى بعض أعمالهم ومسيئين فى بعض كانوا مذنبين .

(رضى الله عنهم ورضوا عنه) أى هؤلاء جميعا رضى الله عنهم فى إيمانهم و إسلامهم ، فقبل طاعتهم وتجاوز عن زلاتهم ، وبهم أعز الإسلام ونكل بأعدائه من المشركين وأهل الكتاب ، ورضوا عنه بما أسبغ عليهم من نعمه الدينية والدنيوية فأنقذهم من الشرك وهداهم من الضلال وأعزهم بعد الذل وأغناهم بعد الفقر .

(وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم) هذا الوعد الكريم تقدم فى آيات سابقة فى هذه السورة وغيرها ، ولا شك أن نعيم الجنة الخالد بين روحانى و بدنىّ فوز أيما فوز .

والخلاصة — إن هذه الطبقات الثلاث قد استبق أفرادها الصراط ، وشهد لهم ربهم بالمغفرة والتجاوز عن كل ذنب ، وما عاد يؤثر فى كمال إيمانهم شىء ، لأن نورهم يمحو كل ظلمة تطرأ على أحد منهم بإلمامه بذنب .

و بعد أن بيّن كمال إيمان تلك الطبقات الثلاث ورضاه عنهم — بين حال منافقى أهل المدينة ومن حولها فقال :

(وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق) أى إن بعض الأعراب الذين حولكم منافقون .

قال البغوى والواحدى : هم من قبائل جهينة ومزينة وأشجع وأسلم وغفار ، وكانت منازلهم حول المدينة ، وذلك لايمنع أن يكون فيهم مؤمنون صادقون دعا لهم النبى صلى الله عليه وسلم ومدحهم ، فقد روى الشيخان عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأشجع وغفار موالى الله تعالى ورسوله لاموالى لهم غيره » ، وعنه أيضا أنه صلى الله عليه وسلم قال : «أسلم سالمها الله، وغفار غفر الله لها ، أما إنى لم أقلها ، لكن قالها الله تعالى »

وكذلك من أهل المدينة نفسها ناس منافقون من الأوس والخزرج سوى من أعلم الله رسوله بهم فى هذه السورة بما صدر منهم من أقوال وأفعال تنافى الإيمان .

هؤلاء وهؤلاء مرنوا على النفاق وحذقوه حتى بلغوا الغاية فى إتقانه ، فلا يشعر أحد به إذ هم يتقون جميع الأمارات والشبه التى تدل عليه .

(لاتعلمهم نحن نعلمهم) أى لاتعرفهم أيها الرسول الكريم بفطنتك ودقيق فراستك لحذقهم فى التقية وتباعدهم عن مثار الشبهات ، بل نحن نعلمهم بأعيانهم ، وهؤلاء أخفى نفاقا ممن قال الله فيهم : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ

يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ . وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ » .

وهؤلاء لم يعلمه الله أعيانهم ولافضحهم بأقوال قالوها ولا بأفعال فعلوها كما فضح غيرهم فى هذه السورة لأنهم يتحامون ما يكون شبهة فى إيمانهم ، وضررهم مقصور عليهم لايعدوهم إلى سواهم .

والحكمة فى إخبارنا بحالهم أن يعلموا هم أنفسهم أن الله عليم بما يسرون من نفاقهم ، ويحذروا أن يفضحهم الله كما فضح سواهم ، وليتوب منهم من يتوب قبل أن يحل بهم ما أوعدهم به ربهم بقوله :

(سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم) أى سنعذبهم فى الحياة الدنيا مرتين : أولاهما مايصيبهم به من المصايب وانتظار الفضيحة بهتك أستارهم . وثانيتهما آلام الموت وزهوق أنفسهم وهم كافرون ، وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم فى ذلك الحين ، ثم يردون يوم القيامة إلى عذاب جهنم وبئس المصير .

والخلاصة — إنهم يعذبون فى الدنيا بالعذاب الباطن بتوبيخ الضمائر وعذاب الخوف من الفضيحة على رءوس الأشهاد فى الظاهر ، ثم عذاب النار وبئس القرار .

وجملة القول — إن المنافقين فريقان : فريق عرفوا بأقوال قالوها وأعمال عملوها ، وفريق مردوا على النفاق وحذقوه حتى لايشعر أحد بشىء يستنكره منهم .

وهذان الفريقان يوجدان فى كل عصر ، فما من قطر من الأقطار إلا مُنى أهله بأعوان وأنصار منهم يزعمون أنهم يخدمون أمتهم من طريق استمالة الغاصب واسترضائه ، وأنه لولاهم لتمادى فى ظلمه وهضم حقوق الأمة ولم يقف عند حد ، ومنهم من يخدمون المستعمرين خدمة خفيّة لاتشعر بها الأمة لأنهم مرنوا على النفاق .

وأشد المنافقين مرودا على النفاق أعوان الملوك المستبدين الذين يُلبسون الباطل لباس الحق ويروّجونه فى أعين الجماهير خدمة لأولئك الملوك .

(وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا) أى وهناك فريق

آخر ممن حولكم من الأعوان ومن أهل المدينة ليسوا منافقين ولا من السابقين الأولين ، بل من المذنبين الذين خلطوا الصالح من العمل بالسيء منه ، والسيء بالصالح ، فلم يكونوا من الصالحين الخلّص ولا من الفاسقين ، فهم قد آمنوا وعملوا الصالحات واقترفوا بعض السيئات كالذين تخلفوا عن الخروج إلى غزوة تبوك من غير عذر صحيح ولم يستأذنوا كاستئذان المرتابين ولم يعتذروا بالكذب كالمنافقين ، ثم كانوا حين قعودهم ناصحين لله ورسوله شاعرين بذنوبهم خائفين من ربهم .

وقد بين سبحانه حالهم بقوله :

(عسى الله أن يتوب عليهم) أى إنهم محل الرجاء لقبول الله توبتهم بتوفيقهم للتوبة الصحيحة التى هى سبب المغفرة والرحمة ـ وإنما يكون ذلك بالعلم بقبح الذنب وسوء عاقبته ، وتوبيخ الضمير حين تصور سخط الله والخوف من عقابه ـ ثم الإقلاع عنه بباعث هذا الألم ، والعزم على عدم العود إلى اقترافه ، والعزم على العمل بضده ليمحو أثره من نفسه .

ثم علل هذا بقوله :

(إن الله غفور رحيم) أى إنه تعالى يقبل توبتهم لأنه كثير المغفرة للتائبين ، واسع الرحمة للمحسنين .

وفى معنى الآية قوله : «وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى» وقوله : « إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ »

قال جماعة من العلماء : إن هذه الآية أرجى آية فى القرآن فى توقع رحمة الله للمذنبين الذين يجترحون السيئات ثم يتوبون إلى ربهم ويقلعون عن ذنوبهم .

روى البخارى عن سمرة بن جُنْدُب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أتانى الليلة (أى فى المنام) ملكان فابتعثانى فانتهيا بى إلى مدينة مبنية بلَبِن ذهب ولبن فضة فتلقانا رجال شَطْرٌ من خلقهم كأحسن ما أنت راء وشطر كأقبح ما أنت راء ، قالا لهم اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر ، فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء

عنهم فصاروا فى أحسن صورة ، قالا لى هذه جنة عدن وهذا منزلك ، قالا وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فإنهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا لقد تجاوز الله عنهم » .

ولاشك أن هـذا تمثيل فى الرؤيا لتجميل العمل الصالح للنفس وتشويه العمل القبيح لها ، ولتطهيرها بالتوبة وصالح العمل حتى تكون كلها جميلة وأهلا للكرامة بعد أن تبعث كلها فى الصورة التى كانت عليها قبل التوبة ، وقد شبه النبى صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس بنهر جارٍ يفيض على عتبة الإنسان كل يوم خمس مرات فهل يبقى عليها وسخا أو قذرا ، وفى الحديث : « أتبع السيئة الحسنة تمحها » .

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)

شرح المفردات

الصدقة : ماينفقه المؤمن قربة لله ، والتزكية، من قولهم رجل زكىّ : أى زائد الخير والفضل قاله فى الأساس ، والصلاة : الدعاء ، والسكن : ما تسكن إليه النفس وترتاح من أهل ومال ومتاع ودعاء وثناء .

المعنى الجملى

جاءت هذه الآيات فى بيان فوائد صدقة الأموال والحث عليها وقبول التوبة لمن قصّر فى الجهاد فى سبيل الله بماله ونفسه .

روى ابن جرير أن أبا لُبابة وأصحابه (ممن تخلفوا وتابوا وسيأتى ذكرهم) جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أُطلقوا فقالوا يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا فقال «ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا» فأنزل الله (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) فلما نزلت أخذ الثلث من أموالهم فتصدق به عنهم.

وهذا النص وإن كان سببه خاصا، عام فى الأخذ، يشمل خلفاء الرسول من بعده ومن بعدهم من أئمة المسلمين؛ وفى المأخوذ منهم وهم المسلمون الموسرون، ومن ثم قاتل أبو بكر الصديق وسائر الصحابة مانعى الزكاة من أحياء العرب حتى أدوا الزكاة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: «والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأقاتلنهم على منعه».

الإيضاح

(خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) أى خذ أيها الرسول من أموال هؤلاء ومن غيرهم من سائر أموال المؤمنين على اختلاف أنواعها من نقد وأنعام وأموال تجارة، صدقة بمقدار معين فى الزكاة المفروضة أو بمقدار غير معين فى زكاة التطوع تطهرهم بها من دنس البخل والطمع والقسوة على الفقراء البائسين، وتزكى أنفسهم بها وترفعهم إلى منازل الأبرار بفعل الخيرات حتى يكونوا أهلا للسعادة الدنيوية والأخروية.

وقد نسبت التزكية إلى الله فى قوله: «وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَازَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا، وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّى مَنْ يَشَاءُ» لأنه الخالق الموفق للعبد لفعل ما تزكو به نفسه وتصلح.

ونسبت إلى رسول الله فى هذه الآية فى قوله: «هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ»

لأنه هو المربى للمؤمنين على ما تزكو به نفوسهم ويعلو قدرها باتباعهم سنته العملية والقولية وبيانه لكتاب الله ، فهو القدوة الحسنة لهم .

ونسبت إلى الفاعل لها فى نحو قوله : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » وقوله : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى » لأنه قد فعل ما كان سببا فى طهارة نفسه وزكاتها من صدقات ونحوها من أعمال البر .

وأما النهى عن تزكية النفس فى قوله : « فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى » وقوله : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ » فذاك فى تزكية النفس بدعوى اللسان فقط دون عمل يؤيدها .

(وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم) أى وادع أيها الرسول للمتصدقين واستغفر لهم ، فإن دعاءك واستغفارك سكن لهم يذهب به اضطراب نفوسهم وتطمئن قلوبهم بقبول توبتهم ، ويرتاحون إلى قبول الله صدقاتهم بأخذك لها ووضعها فى مواضعها .

والصلاة من الله على عباده رحمته لهم ، ومن ملائكته استغفارهم كما قال تعالى : « إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً » ومن المؤمنين على النبى صلى الله عليه وسلم دعاؤهم له بما أمرهم به فى الصلاة بعد التشهد الأخير كالدعاء المأثور (اللّهم ربّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته إنك لا تخلف الميعاد » .

(والله سميع عليم) أى والله سميع لاعترافهم بذنوبهم ، سميع لدعائك سماع قبول وإجابة ، عليم بندمهم وتوبتهم منها وإخلاصهم فى صدقاتهم وطيب أنفسهم بها ، وعليم بما فيه الخير والمصلحة لهم وهو الذى يثيبهم عليها .

وقد روى البخارى ومسلم عن عبد الله بن أبى أوفى قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : « اللّهم صلّ على فلان » فأتاه أبى بصدقته فقال : « اللّهم صلّ على آل أبى أوفى » .

وفى هذا إيماء إلى أن المراد بالصدقة مايعم الفريضة وغيرها ، وإلى أنه صلى الله عليه وسلم كان مواظبا على هذا الدعاء ، ومن ثم قيل إن هذا الأمر للوجوب وهو خاص به صلى الله عليه وسلم .

فوائد الصدقات فى إصلاح المجتمع الإسلامى

الصدقات تطهر أنفس الأفراد من أرجاس البخل ، والدناءة والأثرة ، والطمع والجشع ، وتبعدهم عن أكل أموال الناس بالباطل من خيانة وسرقة وغصب وربا ، وغير ذلك . فإن من يتعود بذل بعض ما فى يده أو ما أودعه فى خزائنه فى سبيل الله ابتغاء مرضاته ومغفرة ذنوبه - يكن أرفع نفسا من أن يأخذ مال غيره بغير حق ، وإذا طهرت أنفس الأفراد وزكت بالعلم والتقوى وهما ثمرة الإيمان طهرت جماعة المؤمنين من أرجاس الرذائل الاجتماعية التى هى مثار التحاسد والتعادى والبغى والعدوان والفتن والحروب ، فإن الأموال قوام الحياة المعيشية للفرد والمجتمع ، فهى مثار التنازع والتخاصم ، ومن ثم أوجب الدين على أصحاب الأموال من النفقات والصدقات مايجعل الثروات وسيلة للسلام لا إلى الخصام .

وقد جمع الإسلام بين مصالح الروح والجسد للوصول إلى السيادة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة ، فهو وسط بين اليهودية المفرطة فى حب المال ، والنصرانية الروحانية الزاهدة ، فمن أهمّ مقاصده الإصلاحية فى الاجتماع البشرى هداية الناس إلى العدل فى أمر المال ليبتعدوا عن شر طغيان الأغنياء على الفقراء ، ونصوص الدين فى هذا الباب هى الغاية التى لايطمح مصلح فى التطلع إلى مابعدها ، وهى هادمة لمزاعم من يفتات على الإسلام من أرباب الجهل والهوى .

وقد فرضت الزكاة المطلقة فى أول الإسلام وكانت اشتراكية ، والباعث عليها القلوب والضمائر لا إكراه الحكام، ثم جعلت معينة محدودة عند ما صار للإسلام دولة.

وسر الوضع الأول أن جماعة المسلمين فى مكة قبل الهجرة كانوا محصورين ،

ومنهم الموسر والمعسر وصاحب الثروة وذو الفقر المدقع ، فوجب أن يقوم أغنياؤهم بكفالة فقرائهم وجوبا دينيا إذا كانت الزكاة المعينة لاتكفيهم .

ولاشك أن الأسس الإصلاحية للمال التي وضعها الإسلام لايتسنى لأقدر الأمم المالية في العصر الحاضر أن تضع خيرا منها ، انظر إليه تره حرم الربا والقمار لما أنهما يوجدان التنازع والتخاصم بين الناس وإن كان فيها بعض المكاسب ، وأوجب الحجر على السفهاء في أموالهم صيانة لها عن الضياع فيما يضرهم ويضر أمتهم ، وفرض النفقة الزوجية والنفقة على ذوى القرابة من ذوى الحاجة ، وذم الإسراف والتبذير والبخل والجشع والتقتير ومدح القصد والاعتدال في النفقة على النفس والعيال ، وأباح الزينة والطيبات من الرزق بشرط اجتناب الإسراف حفظا للثروة من الضياع وبُعدا عن الأمراض والأدواء البدنية ، وجعل زكاة النقدين الواجبة هي ربع العشر أي $2\frac{1}{2}$٪ وهو أوسط ربح تدفعه المصارف المالية لمودعى نقودهم فيها للاستغلال .

انظر إلى الثروة في مصر نقدا وتجارة وتأمل مقدار ربع العشر الواجب فيها في كل عام لفقرائها ومرافقها العامة ، ثم قدر في نفسك إذا هي قامت بالواجب الديني عليها في الزكاة ، هل يكون فيها فقر مدقع أو شقاء بين أفراد الأمة ، هل تتصور أن تنتشر فيها الأمراض المعدية أو يخيم على أفرادها الجهل ، أو ترتكب فيها جنايات السرّاق وقطاع الطرقات وذوى الخيانة والغدر ، أظن أن الجواب على ذلك : لا .

وقد جاء في الكتاب والسنة الترغيب في بذل المال في سبيل البر وجعله علامة من علامات الإيمان الموجبة لثواب الرحمن والدخول في غرفات الجنان ، ولم يجئ مثل ذلك في أي نوع من أنواع البر وضروب الإحسان .

(ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده) أي ألم يعلم أولئك التائبون من ذنوبهم أن الله هو الذي يقبل توبة التائبين من عباده ، ولم يجعل ذلك لأحد من خلقه لا رسول ولا مَن دونه .

وفي الآية حضّ على التوبة والصدقة والترغيب فيهما .

(ويأخذ الصدقات) أى يتقبلها ويثيب عليها ويضاعف ثوابها كما وعد بذلك فى قوله : « إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ » .

(وأن الله هو التواب الرحيم) أى إنه تعالى هو الذى يقبل التوبة إثر التوبة من المذنبين الذين ينيبون إلى ربهم ، وإنه هو الرحيم بالتائبين الذى يثيبهم على ماقدموا من عمل، ويمنعهم الخوف أن يصروا على ذنب كما قال تعالى فى وصف المتقين « وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » وجاء فى الحديث « ما أصرّ من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة » رواه الترمذى ، وروى الشيخان عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ماتصدق أحدكم بصدقة من كسب حلال طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة ، فتربو فى كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربى أحدكم فلوّه أو فصيله » والحديث تمثيل لحال الصدقة المقبولة عند الله .

(وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) أى وقل لهم أيها الرسول اعملوا لدنياكم وآخرتكم ، لأنفسكم وأمتكم ، فالعمل هو مناط السعادة ، لا الاعتذار عن التقصير ولا دعوى الجدّ والتشمير ، وسيرى الله عملكم خيرا كان أو شرا ، فيجب عليكم أن تراقبوه فى أعمالكم وتتذكروا أنه عليم بمقاصدكم ونياتكم ، فجدير بمن يؤمن به أن يتقيه فى السر والعلن ويقف عند حدود شرعه ، وسيراه رسوله والمؤمنون ويزنونه بميزان الإيمان الذى يفرق بين الإخلاص والنفاق ، وهم شهداء على الناس .

روى أحمد والبيهقى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوّة لأخرج الله عمله للناس كائنا ما كان » .

وفى الآية إيماء إلى أن مرضاة جماعة المؤمنين القائمين بحقوق الإيمان تلى مرضاة الله ورسوله ، وفى حديث أنس رضى الله عنه قال : « مرّوا بجنازة فأثنوا عليها خيرا

إلى م

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : وجبت ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شرا فقال وجبت فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ماوجبت ؟ قال : هذا أثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شرا فوجبت له النار ، أنتم شهداء الله فى الأرض » .

وقال ابن عباس ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن .

(وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) أى وستردون يوم القيامة إلى من يعلم سرائركم وعلانيتكم ، ومن لايخفى عليه شىء من بواطن أموركم وظواهرها فيعرفكم أعمالكم ثم يجازيكم عليها بحسن الثواب أو سوء العذاب .

وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦) .

شرح المفردات

مرجون ومرجئون وبهما قرئ : أى مؤخرون ، يقال أرجأت الأمر وأرجيته : أى أخرته .

المعنى الجملى

كان المتخلفون عن الجهاد فى غزوة تبوك أقساما ثلاثة :

(١) المنافقون الذين مردوا على النفاق ، وهم أكثر المتخلفين .

(٢) المؤمنون الذين اعترفوا بذنوبهم وتابوا وزكوا توبتهم بالصدقة وطلب دعاء الرسول واستغفاره فتاب الله عليهم .

(٣) المؤمنون الذين حاروا فى أمرهم ولم يعتذروا للرسول صلى الله عليه وسلم لأنهم لاعذر لهم ، وأرجئوا توبتهم فأرجأ الله الحكم القاطع فى أمرهم لأسباب ستذكر بعد .

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة : هم الثلاثة الذين خلفوا عن التوبة ، وهم مرارة ابن الربيع ، وكعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، قعدوا عن غزوة تبوك فى جملة من قعد كسلا وميلا إلى الدعة والتمتع بطيب الثمار ، والتفيؤ بالظلال لاشكّا ونفاقا ، وكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسوارى كما فعل أبو لبابة وأصحابه ، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون ، فنزلت توبة الأولين قبل توبة هؤلاء وأرجئت توبة هؤلاء حتى نزلت آية التوبة «لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ» الخ.

الإيضاح

(وآخرون مرجون لأمر الله) أى ومن المتخلفين ناس آخرون مؤخرون لحكم الله فى أمرهم ، وهم أولئك النفر الذين سبق ذكرهم وكانوا تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الهمّ باللحاق به ولم يتيسر لهم ولم يكن تخلفهم عن نفاق ، فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم قالوا لاعذر لنا إلا الخطيئة ولم يعتذروا له صلى الله عليه وسلم كما فعل أبو لبابة وأصحابه من الذين ربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد فنزل فيهم قوله تعالى .

(وآخرون مرجون) الآية فنهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن مجالستهم وأمرهم باعتزال نسائهم وإرسالهن إلى أهلهن إلى أن نزل قوله (لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار) الآية .

(إما يعذبهم وإما يتوب عليهم) أى إن أمرهم دائر بين هذين : التعذيب والتوبة وقد أُبهِمَ الأمر عليهم وعلى الناس فلا يدرون ماذا ينزل بهم ؟ هل تنفع توبتهم فيتوب الله عليهم كما تاب على الذين اعترفوا بذنوبهم ، أو يحكم بعذابهم فى الدنيا والآخرة كما حكم على الخالفين من المنافقين .

وحكمة إبهام الأمر إثارة الغم والحزن فى قلوبهم لتصحّ توبتهم .

وحكمة إبهامه على الرسول والمؤمنين تركهم مكالمتهم ومخالطتهم، تربية للفريقين

على ما يجب أن يعامل به أمثالهم ممن يؤثرون الراحة ونعمة العيش على طاعة الله ورسوله والجهاد لإعلاء كلمة الحق ودفع عدوان أهل الباطل عن المؤمنين .

(والله عليم حكيم) أى والله عليم بما يصلح حال عباده ويربيهم ويزكيهم أفرادا وجماعات ، حكيم فيما يشرعه لهم من الأحكام المفيدة لهذا الصلاح إذا عملوا بها.

ومن هذه الحكمة إرجاء النص على توبتهم فى كتابه ، كما أن تكرار تلاوتها فى مختلف الأوقات مما يوقع فى قلوب المؤمنين الرهبة والخوف ويفيدهم عظة وتهذيبا .

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ، وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ، لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠) .

شرح المفردات

الضرار والمضارة : محاولة إيقاع الضرر ، والإرصاد : الانتظار والترقب مع العداوة يقال رصدته : أى قعدت له على طريقه أترقبه ، وأرصدت هذا الجيش للقتال ، وهذا الفرس للطراد ، ولا تقم : أى لا تصلّ ، والتأسيس : وضع الأساس للبناء ليقوم عليه ويرفع ، والتقوى : اسم لما يرضى الله ويقى من سخطه ، وشفا أى حرف

والجُرُف (بضمتين) : جانب الوادى ونحوه ، والهار والهائر : كالشاك والشائك : الضعيف المتداعى للسقوط ، وانهار : سقط ، والريبة : من الريب ، وهو اضطراب النفس وتردد الوهم والحيرة ، وتقطع : أى تفرق أجزاء .

المعنى الجملى

هذه الآيات نزلت فى بيان مكيدة من مكايد المنافقين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، وذكرت هنا لما فيها من العبرة والعظة والذكرى بإبهام عطفها على من أرجأ الله الحكم فى أمرهم ليتعظ أولئك الغافلون من المؤمنين المغرورين بمسجد الضرار ومتخذيه ، ويخافوا أن يؤاخذوا بمشايعتهم لهم ولو بصلاتهم معهم فى مسجدهم .

روى فى سبب نزول الآيات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب ، كان قد تنصر وقرأ علم أهل الكتاب وكان له منزلة كبيرة فيهم . فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة مهاجرا واجتمع عليه المسلمون وعلت كلمة الإسلام وأظهره الله على أهل الشرك خرج فارّا إلى مكة وألّب المشركين على النبى صلى الله عليه وسلم فى وقعة أحد وخاطب قومه الأنصار ليستميلهم إلى نصره فسبوه وردوه أقبح ردّ ، ولما فرغ الناس من الموقعة فرّ إلى هرقل ملك الروم يستنصره فوعده ومنّاه وكتب أبو عامر إلى جماعة من قومه من أهل النفاق أنه سيقدم بجيش يقاتل به محمدا ويغلبه وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يأوى إليه من يقوم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصدا له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموا بناءه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك ، وجاءوا فسألوه أن يصلى فى مسجدهم ليكون ذلك ذريعة إلى تقريره لإثباته ، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة فى الليلة الشاتية فعصمه الله من الصلاة فيه فقال : « إنا على جناح سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله » .

ولما قفل عليه السلام راجعا إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين فى مسجدهم (مسجد قباء) الذى أسس من أول يوم على التقوى ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك المسجد وهدمه قبل مقدمه المدينة وأمر أن يتخذ كناسة يلقى فيها القمامة إهانة لأهله .

الإيضاح

(والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل) .

روى أن الذين اتخذوا هذا المسجد كانوا اثنى عشر رجلا من منافقى الأوس والخزرج ، وقد بين الله الأغراض التى لأجلها بُنى ، وهى :

(١) مضارة المؤمنين من أهل مسجد قباء الذى بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمه من مكة مهاجرا قبل وصوله إلى المدينة .

(٢) تقوية الكفر وتسهيل أعماله من فعل وترك كتمكين المنافقين من ترك الصلاة هناك مع خفاء ذلك على المؤمنين لعدم اجتماعهم فى مسجد واحد ، والتشاور فيما بينهم فى الكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم والطعن فيه إلى نحو أولئك من مقاصد المنافقين .

(٣) التفريق بين المؤمنين المقيمين هنالك ، فإنهم كانوا يصلون جميعا فى مسجد قباء ، وفى ذلك حصول التعارف والتآلف والتعاون وجمع الكلمة وهو أهم مقاصد الإسلام الاجتماعية ، ومن ثم كان تكثير المساجد وتفريق الجماعة منافيا لأغراض الدين ومراميه ، ومن الواجب أن يصلى المسلمون الجمعة فى مسجد واحد ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، فإن تفرقوا عمدا كانوا آثمين .

ومن هذا يعلم أن بناء المساجد لا يكون قربة يتقبلها الله إلا إذا دعت الحاجة

إلى ذلك ، ولم يكن سببا لتفريق جماعتهم ، فكثير من المساجد المتقاربة فى القاهرة وغيرها من الأمصار الأخرى لم تُبْنَ لوجه الله بل كان الباعث على بنائها الرياء واتباع الأهواء من جهلة الأفراد والأثرياء وعدم نصح العلماء لهم .

(٤) الانتظار والترقب لمن حارب الله ورسوله أن يجىء محاربا فيجد مكانا مرصدا له ، وقوما راصدين مستعدين للحرب معه ، وهم أولئك المنافقون الذين بنوا هذا المسجد مرصدا لذلك .

(وليحلفنّ إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون) أى وليحلفن ما أردنا ببنائه إلا الخصلة التى تفوق غيرها فى الحسن ، وهى الرفق بالمسلمين وتيسير صلاة الجماعة على أولى العجز والضعف ومن يحبسهم المطر منهم ، ليصدقهم الرسول صلى الله عليه وسلم وليصلى معهم ، والله يعلم إنهم لكاذبون فى إيمانهم لأنهم مابنوه إلا للسوءى وضرار مسجد قباء .

(لاتقم فيه أبدا) أى لاتقم فى هذا المسجد للصلاة أبدا .

(لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه) أى إن مسجدا قصد ببنائه منذ وضع أساسه فى أول يوم تقوى الله بإخلاص العبادة له وجمع المؤمنين فيه على مايرضيه من التعارف والتعاون على البر والتقوى ـ هو أحق من غيره أن تقوم فيه أيها الرسول مصلياً بالمؤمنين .

والسياق يدل على أن المسجد الذى أسس على التقوى هو مسجد قباء ، ولكن روى أحمد ومسلم والنسائى أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عنه فأجاب بأنه مسجده الذى فى المدينة ، والآية لاتمنع إرادة كل من المسجدين ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قد بنى كلا من المسجدين ووضع أساسه على التقوى من أول يوم شرع فيه ببنائه.

(فيه رجال يحبون أن يتطهروا) أى فيه رجال يعمرونه بإقامة الصلاة وذكر الله وتسبيحه فيه بالغدوّ والآصال ، ويحبون أن يتطهروا بذلك مما يعلق بأنفسهم من أوضار الذنوب والآثام ، كما تطهر المتخلفون منهم من غزوة تبوك بالتوبة والصدقات ، ويتبع

الطهارة المعنوية بالعكوف فيه للصلاة وغيرها ـ الطهارة الحسية للثوب والبدن ، وطهارة الوضوء والاغتسال .

والخلاصة — إن التطهر يشمل الطهارتين النفسية والبدنية ، والروايات وردت بكل منهما ، والأولى إرادتهما معا .

(والله يحب المطهرين) أي الذين يبالغون فى طهارة الروح والجسد لحبهم إياها ، لأنهم يرون فيهما الكمال الإنسانى ، فمن ثم يبغضون نجاسة البدن والثوب ، وأشد منهما بغضا لهم نجاسة النفس وخبثها بالإصرار على فعل المعاصى والتخلق بذميم الأخلاق كالرياء فى الأعمال إذ هو فعل المنافقين ، والشح بالأموال أو بالأنفس فى سبيل الله ابتغاء لمرضاته .

وحب الله إياهم من صفات كماله ، إذ العالم بتفاوت الأشياء فى الحسن والقبح والكمال والنقص يكون من صفاته حب الكمال والحق والخير و بغض أضدادها .

وحبه تعالى منزه عن مشابهته حبنا كتنزه ذاته وسائر صفاته عن مشابهة ذواتنا وصفاتنا ، و يظهر أثر حبه لعباده فى أخلاقهم وأعمالهم ومعارفهم وآدابهم كما أشار إليه الحديث القدسى الذى رواه البخارى « ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، و بصره الذى يبصر به » الحديث .

وفى معنى الآية ما جاء فى عظة نساء النبى صلى الله عليه وسلم وأمرهن باتباع أوامره ونواهيه بما يليق بما لهن من مكانة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعليم ذلك بقوله : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا »

(أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ، أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم) هذا بيان مستأنف للفرق بين مقاصد أهل مسجد التقوى وهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأنصاره ، ومقاصد أهل مسجد الضرار الذى زادوا به رجسا إلى رجسهم .

والأساس على شفا الجرف الهار مثل يضرب لما يكون فى منتهى الوهى والانحلال

والإشراف على الزوال، أى أفمن أسس بنيانه الذى يتخذه موطنا لراحته وهناء معيشته ويتقى به العوامل الجوّية ؛ وعدوان الكائنات الحية على أمتن الأسس وأقواها على مصابرة العواصف والسيول وصد الهوام والوحوش - خير بنيانا ، أم من أسس بنيانه على أوهى القواعد وأقلها بقاء واستمساكا فكانت عرضة للانهيار فى كل حين من ليل أو نهار ؟.

وقد ضرب الله مثل البنيان على تينك الصفتين لبيان حال الفريقين المتقدمين من صدق الإيمان ، والنفاق والارتياب ، أى أفمن كان مؤمنا صادقا يتقى الله فى جميع أحواله ويبتغى مرضاته فى جميع أعماله ، قاصدا تزكية نفسه وإصلاح سريرته - خير أم من هو منافق مرتاب ، يبتغى بأعماله الضرر والضرار وتقوية أعمال الكفر وموالاة الكفار وتفريق جماعة المؤمنين والإرصاد لمساعدة من حارب الله ورسوله مع ما يكون لعمله فى الدنيا من العار والفضيحة والخزى والبوار ، وفى الآخرة من الانهيار فى النار .

وخلاصة المثل - بيان ثبات الإسلام وقوته وسعادة أهله به وثمرته فى أعمالهم وجزائهم عليه برضوان الله عنهم ، وبيان ضعف الباطل واضمحلاله ووهيه وقرب زواله وخيبة صاحبه وسرعة انقطاع آماله ، وبيان أن شر أعمال أهله المنافقين ، ما اتخذوه من مسجد الضرار لمفاسده الأربع المتقدمة .

فالإيمان وما يلزمه من صالح العمل هو الثابت ، والنفاق وما يستلزمه من فاسد العمل هو الباطل الزاهق بحكم ناموس الاجتماع وبقاء الأصلح فى الوجود ، وقد صدق الله وعده وثبت المؤمنين بالقول الثابت ، وهداهم إلى العمل الصالح ففتحوا البلاد وأقاموا سبيل الحق والعدل ، وأهلك الله المنافقين ، وقد جرت سنة الله فى كل زمان ومكان أن يكون الفوز حليف أهل الحق ، والخيبة لأهل الباطل ما استمسكوا به ، ولم يقلعوا عنه .

(والله لا يهدى القوم الظالمين) أى مضت سنته تعالى ألا يكون الظالم مهتديا فى أعماله إلى الحق والعدل ، ولا إلى الرحمة والفضل .

(لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم) أى لا يزال بنيانهم سبب ريبة وشك فى الدين ، لأنهم يظهرون فيه حال قيامه ما فى قلوبهم من آثار الكفر والنفاق ويدبرون أمورهم ويتشاورون فى ذلك ويلقى بعضهم إلى بعض ماسمعوا من أسرار المؤمنين مما يزيدهم ريبة وشكا فى الدين ، ولكن حين أمر صلى الله عليه وسلم بتخريبه وهدمه ثقل ذلك عليهم وعظم خوفهم وارتابوا فى أمرهم : أيتركون على حالهم أم يؤمر بهم فيقتلون وتنهب أموالهم ، إلى أنهم اعتقدوا أنهم كانوا محسنين فى البناء ، فلما أمر بتخريبه أصبحوا شاكين فى أمره ، ولأى سبب كان ذلك .

ولا يزال هذا شأنهم فى جميع الأحوال إلا حال تقطع القلوب أفلاذا وصيرورتها جذاذا ، فتكون غير قابلة للإدراك .

وفى هذا إيماء إلى تمكن الريبة فى قلوبهم وإضمار الشرك بحيث لا يزول منها ما داموا أحياء .

والخلاصة — إنه لا يزال هدم بنيانهم الذى بنوا سببا للقلق واضطراب النفس وإن ذلك لا يزول ما دامت القلوب سالمة — أما إذا تفرقت قطعا وتقطعت أجزاء بقتلهم فحينئذ يسلون عنه .

وقد يكون المراد إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندما وأسفا على تفريطهم

(والله عليم حكيم) أى والله عليم بكل شىء ، حكيم فى أفعاله ، ومن حكمته أن بيّن حال المنافقين وأظهر ماخفى من أمرهم لتعرفوا كنه الحقيقة فى ذلك .

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ

وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فضائح المنافقين بسبب تخلفهم عن غزوة تبوك ، وأصناف المقصرين من المؤمنين ، أردف ذلك بذكر حال المؤمنين الصادقين فى إيمانهم البالغين فيه حد الكمال ، وبذا تمّ معرفة جميع أحوال المؤمنين .

الإيضاح

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) هذا ترغيب فى الجهاد على أبلغ وجه وأحسن صورة ، فقد مثل الله إثابة المؤمنين على بذل أنفسهم وأموالهم فى سبيله بتمليكهم الجنة التى هى دار النعيم والرضوان الدائم السرمدى تفضلا منه تعالى وكرما - بصورة من باع شيئا هو له لآخر - وعاقد عقد البيع هو ربّ العزة ، والبيع هو بذل الأنفس والأموال ، والثمن هو مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وجعل هذا العقد مسجلا فى الكتب السماوية ، وناهيك به من صكّ لايقبل التحلل والفسخ ، وفى هذا منتهى الربح والفوز العظيم ، وكل هذا لطف منه تعالى وتكريم لعباده المؤمنين ، فهو المالك لأنفسهم إذ هو الذى خلقها ، ولأموالهم إذ هو الذى رزقها ، ولهذا قال الحسن : اشترى أنفسا هو خلقها ، وأموالا هو رزقها ، إلى أنه تعالى غنىّ عن أنفسهم وأموالهم والبيع والثمن له وقد جعله بفضله وكرمه لهم .

روى ابن أبى حاتم وابن مردويه عن جابر قال : نزلت هذه الآية على رسول الله

صلى الله عليه وسلم وهو فى المسجد فكبر الناس فى المسجد فأقبل رجل من الأنصار ثانيا طرفى ردائه على عاتقه فقال : يارسول الله أنزلت فينا هذه الآية ، قال « نعم » فقال الأنصارى : بيع ربيح لانقيل ولا نستقيل .

وأخرج ابن جرير أن عبد الله بن رواحة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اشترط لنفسك ولربك فقال : « أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم ، قالوا فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : الجنة ، قال : ربح البيع لانقيل ولا نستقيل ، فنزلت الآية » .

وأخرج ابن سعد فى طبقاته عن عباد بن الوليد بن عبادة بن الصامت ، أن سعد ابن زُرارة أخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة فقال : يأيها الناس هل تدرون علام تبايعون محمدا ؟ إنكم تبايعونه على أن تحاربوا العرب والعجم والجن والإنس كافة . فقالوا نحن حرب لمن حارب ، وسِلم لمن سالم . فقال يارسول الله اشترط علىّ ، فقال : تبايعونى على أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة ، والسمع والطاعة ، ولا تنازعوا الأمر أهله ، وتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأهليكم ، قالوا نعم . قال قائل الأنصار : نعم هذا لك يا رسول الله، فما لنا ؟ قال الجنة والنصر .

وأخرج ابن سعد عن الشعبي قال : انطلق النبى صلى الله عليه وسلم بالعباس ابن عبد المطلب وكان ذا رأى إلى السبعين من الأنصار عند العقبة ، فقال العباس ليتكلم متكلمكم ولايطيل الخطبة ، فإن عليكم للمشركين عينا، و إن يعلموا بكم يفضحوكم فقال قائلهم : يامحمد سل لربك ماشئت ، ثم سل لنفسك ولأصحابك ماشئت ،ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله وعليكم إذا فعلنا ذلك ؟ ، فقال : أسألكم لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأسألكم لنفسى وأصحابى أن تؤوونا وتنصرونا وتمنعونا مما تمنعون منه أنفسكم ، قال : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : الجنة ، فكان الشعبى إذا حدث هذا الحديث قال : ماسمع الشيب والشباب بخطبة أقصر ولا أبلغ منها .

وروى ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعا « من سلّ سيفا فى سبيل الله فقد بايع الله » وروى ابن أبى حاتم عن الحسن قال : ما على ظهر الأرض مؤمن إلا وقد دخل فى هذه البيعة ، وفى رواية « اسعوا إلى بيعة بايع الله بها كل مؤمن . إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ » .

ثم بين صفة تسليم البيع فقال :

(يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويُقتلون) أى إنهم يقاتلون فى سبيل الحق والعدل التى توصل إلى مرضاة الله تعالى ببذل أنفسهم وأموالهم فيكونون إما قاتلين لأعدائه الصادّين عن سبيله ، وإما مقتولين شهداء فى هذه السبيل ، ولا فرق بين القاتل والمقتول فى الفضل والمثوبة عند الله ، فكل منهما كان فى سبيله ولم يكن رغبة فى سفك الدماء ، ولا حبًّا للأموال ولا توسلاً إلى ظلم العباد كما يفعل الذين يقاتلون لأغراض الدنيا من الملوك والأمراء .

(وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن) أى وعدهم وعداً أوجبه على نفسه وجعله حقا وأثبته فى التوراة والإنجيل ، وضياعه منهما فى النسخ التى بين يدى أهل الكتاب لايضير فى ذلك ؛ لأنه قد ضاع منهما كثير وحرّف بعضهما لفظا ومعنى ، ويكفى إثبات القرآن لذلك وهو المهيمن عليهما .

(ومن أوفى بعهده من الله ؟) أى لا أحد أوفى بعهده وأصدق فى إنجاز وعده من الله ، إذ لايمنعه من ذلك عجز عن الوفاء ولا يعرض له تردد ولا رجوع عما يريد إمضاءه من شأنه .

(فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به) أى فإذا كان الأمر على هذه الحال فأظهروا السرور على ما فزتم به من الجنة .

(وذلك هو الفوز العظيم) أى الفوز الذى لافوز أعظم منه ، وما يتقدمه من النصر والسيادة والملك لايعد فوزا إلا بكونه وسيلة لإقامة الحق والعدل .

وفى هذا الأسلوب من التأكيد واستحقاق المجاهدين للثواب مالا يخفى ، إذجعلهم مالكين معه ومبايعين له ومستحقين الثمن الذى بايعهم به ، وأكد لهم أمر الوفاء وإنجاز وعده .

وعن جعفر الصادق أنه قال : ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها . يريد أن الذى يقتل أو يموت فى سبيل الله بذل بدنه الفانى ، لاروحه الباقى .

ثم وصف الله هؤلاء الكملة من المؤمنين الذين باعوا أنفسهم وأموالهم بجنته — بصفات هى :

(١) (التائبون) أى هم الراجعون إلى الله بتركهم كل مايبعد عن مرضاته ، وتوبة الكفار هى رجوعهم عن الكفر الذى كانوا عليه كما قال : « فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ » وتوبة المنافق تكون بترك نفاقه ، وتوبة العاصى من معصيته تكون بالندم على ما حصل منه والعزم على عدم العود لمثله كتوبة من تخلف عن غزوة تبوك من المؤمنين ، وتوبة المقصر فى شىء من البر وعمل الخير تكون بالاستزادة منه ، وتوبة من يغفل عن ربه تكون بالإكثار من ذكره وشكره .

(٢) (العابدون) لله المخلصون فى جميع عباداتهم ، فلا يتوجهون إلى سواه بدعاء ولااستغاثة ولايتقربون إلى غيره بعمل قربان ولاطلب مثوبة فى الآخرة .

(٣) (الحامدون) لله فى السراء والضراء ، روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أتاه الأمر يسره قال « الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات » وإذا أتاه الأمر يكرهه قال : « الحمد لله على كل حال » .

(٤) (السائحون) فى الأرض لغرض صحيح كعلم نافع للسائح فى دينه أو دنياه أو نافع لقومه وأمته أو النظر فى خلق الله وأحوال الأمم والشعوب للاعتبار والاستبصار وقد حث الله كثيرا على السير فى الأرض والضرب فيها كما قال « أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَالَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ » .

وعلى السفر والسياحة لطلب الرزق الحلال من تجارة وغيرها .

والإسلام الذى يجيز سفر النساء فى الغزوات وهن غير مكلفات بالقتال للمساعدة عليه بتهيئة الطعام والشراب وتضميد الجراح فهو بالأولى يجيز صحبتهن فى سائر الأسفار ، وفى ذلك إحصان لكل من الزوجين ومنع لهما عن التطلع إلى الأجنبى .

وفسر بعضهم السياحة بالصيام لما روى عن عائشة : سياحة هذه الأمة الصيام لأن الصوم يعوق عن اللذات كما أن السياحة كذلك غالبا .

(٥ ، ٦) (الراكعون الساجدون) فى صلواتهم المفروضة ، وخصا بالذكر لما فيهما من الدلالة على التواضع والعبودية والتذلل لله سبحانه .

(٧ ، ٨) (الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر) أى الداعون إلى الإيمان وما يتبعه من أعمال البر والخير ، والناهون عن الشرك وما يسبيله من المعاصى والسيئات.

(٩) (والحافظون لحدود الله) أى الحافظون لشرائعه وأحكامه التى بين فيها ما يجب على المؤمنين اتباعه وما يحظر عليهم فعله منها ، وكذا ما يجب على أئمة المسلمين وأولى الأمر منهم إقامته وتنفيذه بالعمل فى أفراد المسلمين وجماعتهم إذا أخلّوا بما يجب عليهم حفظه منها .

ثم ذكر جزاءهم على ذلك فقال :

(وبشر المؤمنين) أى وبشر أيها الرسول المؤمنين المتصفين بهذه الصفات بخيرى الدنيا والآخرة .

وخصت تلك الخلال بالذكر لأن بها تكون المحافظة على حدود الله .

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ

هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦) .

شرح المفردات

الأوّاه : الكثير التأوّه والتحسر ، أو الخاشع الكثير الدعاء والتضرع إلى ربه ، وقيل إنها كلمة حبشية الأصل ، ومعناها المؤمن أو الموقن ، وأصل التأوه : قول أوه أو آه أو نحوهما مما يقوله الحزين أو أوه بكسر الهاء وضمها وفتحها ، وآهٍ بالكسر منونا وغير منون ، والحليم : الذى لا يستفزه الغضب ولا يعبث به الطيش ولا يستخفه هوى النفس ، ومن لوازم ذلك الصبر والثبات والصفح والتأنى فى الأمور واتقاء العجلة فى الرغبة والرهبة.

المعنى الجملى

كان الكلام من أول السورة إلى هنا براءة من الكفار والمنافقين فى جميع الأحوال ، وهنا بين أنه يجب البراءة من أمواتهم وإن قربوا غاية القرب كالأب والأم ، ثم ذكر السبب الذى لأجله استغفر إبراهيم لأبيه وهو وعده بالاستغفار بقوله : « لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ » فلما أصرّ على كفره تبرأ منه ، وبعدئذ بين رحمته بعباده وأنه لا يعاقبهم على شىء إلا بعد بيان شافٍ لما يعاقبون عليه .

أخرج أحمد وابن أبى شيبة والبخارى ومسلم وابن جرير وغيرهم عن سعيد ابن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبى صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية ، فقال : « أى عم قل لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله » فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ، ويعيدانه بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إله

إلا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والله لأستغفرن لك مالم أنه عنك » فأنزل الله (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) وأنزل الله فى أبى طالب فقال لرسوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » وقد كان موت أبى طالب بمكة قبل الهجرة بنحو ثلاث سنوات ، ومن ثم استبعد بعض العلماء أن تكون نزلت فى أبى طالب ، وأجاب آخرون بأن الذى حصل قد يكون أحد أمرين :

(١) إنها نزلت عقب موته ثم ألحقت بهذه السورة المدنية لمناسبتها لأحكامها الخاصة بالبراءة من الكفار وفضيحة المنافقين .

(٢) إنها نزلت مع غيرها من براءة مبينة لحكم استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم له ، وقد كان من ذلك الحين إلى نزول الآية يستغفر لأبى طالب ، فإن التشديد على الكفار والبراءة منهم إنما جاء فى هذه السورة .

وفى الآية إيماء إلى تحريم الدعاء لمن مات على كفره بالمغفرة والرحمة ، أو بوصفه بذلك كقولهم المغفور له والمرحوم فلان كما يفعله بعض جهلة المسلمين من الخاصة والعامة .

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود عن أبى هريرة قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ، ثم قال : استأذنت ربى أن أستغفر لها فلم يأذن لى واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لى فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت .

الإيضاح

(ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) أى ما كان من شأن النبي ولا مما ينبغى أن يصدر منه من حيث هو نبىّ ، ولا من شأن المؤمنين ولا مما يجوز أن يقع منهم أن يدعوا الله طالبين منه المغفرة للمشركين .

(ولو كانوا أولى قربى) أى ولو كان لهم حق البرّ وصلة الرحم ، وكانت عاطفة القرابة تقتضى الحدب والإشفاق عليهم .

(من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) أى من بعد ما ظهر لهم بالدليل أنهم من أصحاب النار ، بأن ماتوا على الكفر ، أو بأنه نزل وحى يسجل عليهم ذلك كإخباره تعالى عن بعض الجاحدين المعاندين بنحو قوله : « سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ » .

وخلاصة ذلك — إن النبوة والإيمان الصادق لا يبيحان الاستغفار للمشركين فى كل حال حتى ولو كانوا أولى قربى إذا ظهر لهم بالدليل أنهم من أصحاب الجحيم .

ثم أجاب عن سؤال قد يختلج بالخاطر مما تقدم ، فيقال كيف يمتنع النبى والمؤمنون من الاستغفار لأقربائهم وقد استغفر إبراهيم لأبيه فقال :

(وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه) أى وما استغفر إبراهيم لأبيه آزر بقوله (وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ) أى وفقه للإيمان واهده إلى سبيله — إلا عن موعدة وعدها إياه بقوله : « سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي » أى لا أملك لك هداية ولا نجاة وإنما أملك أن أدعو الله لك .

وقد وفى إبراهيم بما وعد ولم يكن إلا وفيا كما شهد الله له بقوله : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى » .

(فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) أى لم يزل إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما مات تبين له أنه عدو لله فتبرأ منه، قال ابن عباس ، وقيل تبين له ذلك بوحى من الله فتبرأ منه ومن قرابته وترك الاستغفار له ، إذ هذا مقتضى الإيمان كما قال تعالى : « لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ » الآية .

ثم بين السبب الذى حمل إبراهيم على الوعد بالاستغفار لأبيه مع شكاسته عليه وسوء خلقه معه كما يؤذن بذلك قوله له : « لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا». فقال :

(إن إبراهيم لأواه حليم) أى إن إبراهيم لكثير المبالغة فى خشية الله والخضوع له ، صبور على الأذى والصفح عن زلات غيره عليه .

(وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم) أى وما كان من سنن الله فى خلقه ولا من رحمته وحكمته أن يصف قوما بالضلال ويجرى عليهم أحكامه بالذم والعقاب بعد إذ هداهم إلى الإيمان وشرح صدورهم للإسلام - بقول يصدر منهم عن غير قصد أو عمل يحدث منهم باجتهاد خاطئ .

(حتى يبين لهم ما يتقون) من الأقوال والأفعال بيانا واضحا بوحى صراحة أو دلالة .

(إن الله بكل شىء عليم) أى إنه تعالى عليم بجميع الأشياء ، ومن جملتها حاجة الناس إلى البيان فهو يبين لهم مهمات الدين بالنص القاطع حتى لا يضل فيه اجتهادهم بأهواء أنفسهم ، ومن أجل هذا لم يؤاخذ إبراهيم فى استغفاره لأبيه قبل أن تتبين له حاله ، وكذلك لا يؤاخذ النبى والذين آمنوا بما سبق لهم من الاستغفار لوالديهم وأولى القربى منهم قبل هذا التبيين لحكم الله تعالى .

ولما منعهم من الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولى قربى ، وذلك يستدعى التبرؤ منهم وعدم انتظار النصرة من أحد - بين أن النصر لا يكون إلا من جهته تعالى فقال:

(إن الله له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وما لكم من دون الله من ولىّ ولا نصير) أى إنه تعالى مالك كل موجود ومتولى أمره فى السموات والأرض ، وهو الذى يهب الحياة بمحض قدرته ومشيئته ومقتضى سننه فى التكوين ، ويميت من يشاء حين انقضاء أجله، وليس لكم أيها المؤمنون من يتولى أموركم ولا من ينصركم على عدوكم غير الله تعالى ، فلا تحيدوا عن هدايته فيما نهاكم عنه من الاستغفار لأولى القربى الذين هم أهل الولاية والنصرة من ذوى الأرحام ، ولا فى غير ذلك من أوامره ونواهيه .

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَلَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) .

شرح المفردات

العسرة : الشدة والضيق ، وزاغ : مال ، والرحب : السعة ، ولجأ إلى الحصن وغيره : لاذ إليه واعتصم به ، الرأفة : العناية بالضعيف والرفق به ، والرحمة : السعى فى إيصال المنفعة .

المعنى الجملى

بعد أن استقصى سبحانه أحوال المتخلفين عن غزوة تبوك على النحو الذى سلف ـ عاد مرة أخرى إلى الكلام فى توبتهم جريا على سنة القرآن الكريم فى تفريق الآيات فى الموضوع الواحد لأنه أفعل فى النفس وأشد تأثيرا فى القلب وأجدى فى تجديد الذكرى وأدنى ألا يسأم التالى لها فى الصلاة وغيرها . إلى أنه مناسب لما قبله من النهى عن الاستغفار للمشركين ، إذ كلٌّ مما يتاب منه ، وكل عثرة يطلب منها الصفح والعفو .

الإيضاح

(لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار) أى لقد تفضل سبحانه وعطف على نبيه وأصحابه المؤمنين الصادقين من المهاجرين والأنصار فتجاوز عن هفوات

صدرت منهم فى هذه الغزوة وغيرها لبلائهم الحسن فيها ، ولأنهم لم يصروا على شيء منها .

وقد كانت هفواتهم على سنن الطباع البشرية واجتهاد الرأى فيما لم يبينه الله بيانا قطعيا بحيث يعد مخالفه عاصيا ، وقد فسر ابن عباس التوبة على النبى صلى الله عليه وسلم هنا بقوله فى سياق هذه الغزوة « عَفَا اللَّهُ عَنْكَ - لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ؟ » أي إن التوبة كانت من اجتهاد لم يقره الله عليه إذ غيره كان خيرا منه ، وتوبة المهاجرين والأنصار ، وهم خلص المؤمنين كانت من تثاقلهم فى الخروج حتى ورد الأمر الحتم والتوبيخ على التثاقل إلى الأرض ، ومنهم من كان ذنبه السماع للمنافقين فيما كانوا يبغون من فتنة المؤمنين .

وتوبة الله على عباده توفيقهم للتوبة وقبولها منهم ، وإنما يتوبون من ذنب ، وما كل ذنب معصية لله عز وجل .

(الذين اتبعوه فى ساعة العسرة) أى الذين اتبعوه ولم يتخلفوا عنه وقت الشدة والضيق ، وكانت عسرة فى الزاد إذ كان الوقت نهاية فصل الصيف الذى نفدت فيه مئونتهم من التمر وأول فصل الخريف الذى بدأ فيه إرطاب الموسم الجديد ولا يمكن حمل شيء منه ، فكان يكتفى الواحد منهم أو الاثنان بالتمرة الواحدة من التمر القديم ومنه المدود واليابس ، ومنهم من تزود بالشعير المسوس والإهالة (الشحم المذاب) الزنخة المتغيرة الرائحة - وعسرة فى الماء حتى كانوا ينحرون البعير على قلة الرواحل ليعتصروا الفرث الذى فى كرشه ويبلوا به ألسنتهم - وعسرة فى الظهر (فى الإبل) حتى كان العشرة يعتقبون بعيرا واحدا - وعسرة فى الزمن إذ كان فى حرارة القيظ (شدة الحر) .

قال جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى ساعة العسرة : عسرة الظهر وعسرة الزاد وعسرة الماء ، وقال ابن عباس لعمر رضى الله عنهم : حدثنا من شأن ساعة العسرة ، فقال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك فى قيظ شديد فنزلنا منزلا فأصابنا

فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع حتى إن كان الرجل لينحر بعيره ليعصر فرثه فيشربه ويجعل مابقي على كبده ، فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : يارسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيرا فادع لنا ، فرفع يديه فلم يرجعها حتى سالت السماء فأهطلت ثم سكنت فملئوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر .

(من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم) أى إنه تاب على المؤمنين كافة من بعد ما كاد يزيغ بعضهم عن الإيمان وهم الذين تخلفوا لغير علة النفاق ، وهم الذين وصفهم الله بأنهم عملوا عملا صالحا وآخر سيئا واعترفوا بذنوبهم ، فقبل الله توبتهم كما ذكر فيما سلف .

(ثم تاب عليهم) هذا تكرير للتوكيد كما يقال عفا السلطان عن فلان ثم عفا عنه ، فيدل ذلك على أنه عفو متأكد بلغ الغاية القصوى من القوة والكمال .

ثم علل قبول توبتهم بقوله :

(إنه بهم رءوف رحيم) أى إن ربهم رءوف رحيم بهم ، فلا يهلكهم بأن ينزع الإيمان منهم بعد ما أبلوا في الله وأبلوا مع رسوله وصبروا في البأساء والضراء .

(وعلى الثلاثة الذين خلفوا) أى ولقد تاب الله على الثلاثة الذين خلفوا عن الخروج إلى تبوك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم المرجون لأمر الله ، وتقدم أنهم ثلاثة : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع .

(حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت) أى خلفوا عن التوبة حتى شعروا بأن الأرض قد ضاقت عليهم على رحبها وسعتها بالخلق جميعا خوفا من العاقبة وجزعا من إعراض النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عنهم وهجرهم إياهم في المجالسة والمحادثة .

وهذا مثل للحيرة في الأمر ، كأنهم لايجدون فيها مكانا يقرون فيه قلقا وجزعا مما هم فيه ، قال قائلهم :

كأن فجاج الأرض وهى فسيحة		على الخائف المطلوب كِفّة حابل

ثم ترقى وانتقل من ضيق الأرض عليهم إلى ضيقهم في أنفسهم فقال :

(وضاقت عليهم أنفسهم) أى وضاقت أنفسهم على أنفسهم ، لما كانوا يشعرون به من ضيق صدورهم بامتلائها بالهمّ والغم حتى لامتسع فيها لشىء من البسط والسرور ، فكأنهم لايجدون لأنفسهم مكانا ترتاح إليه وتطمئن به .

(وظنوا أن لاملجأ من الله إلا إليه) أى واعتقدوا أنه لاملجأ لهم من غضب الله ورسوله ، إلا إليه تعالى بالتوبة والاستغفار ورجاء رحمته ، وقد أعرض عنهم رسوله البر الرحيم بأصحابه فلم يكونوا يستطيعون أن يطلبوا دعاءه واستغفاره - إلى أنه صلى الله عليه وسلم لايشفع فى الدنيا ولا فى الآخرة إلا لمن ارتضى الله أن يشفع لهم .

(ثم تاب عليهم) أى ثم عطف عليهم وأنزل قبول توبتهم .

(ليتوبوا) ويرجعوا إليه بعد إعراضهم عن هدايته ، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم .

(إن الله هو التواب الرحيم) أى إنه تعالى كثير القبول لتوبة التائبين ، الواسع الرحمة للمحسنين ، المتفضل عليهم بضروب النعم مع استحقاقهم لأعظم أنواع العقاب.

وكان من حديث هؤلاء الثلاثة ماحدثه كعب قال: «لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمت عليه فرد علىّ كالمغضب بعد ما ذكرنى وقال : « ليت شعرى ما خلف كعبا » فقيل له ما خلفه إلا حسن بُرْديْه والنظر فى عِطْفَيْه فقال : « معاذ الله ما أعلم إلا فضلا و إسلاما ، ونهى عن كلامنا أيها الثلاثة فتنكر لنا الناس ولم يكلمنا أحد من قريب أو بعيد ، فلما مضت أربعون ليلة أمرنا أن نعتزل نساءنا ولا نقربهن ، فلما تمت خمسون ليلة إذا أنا بنداء من ذروة سلع (جبل بالمدينة) أبشر يا كعب بن مالك فخررت ساجدا ، وكنت كما وصفنى ربى (وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم) وتتابعت البشارة فلبست ثوبى وانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو جالس فى المسجد وحوله المسلمون فقام إلىّ طلحة بن عبد الله يهرول حتى صافحنى وقال : لتهنك توبة الله ، فلن أنساها لطلحة ،

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يستنير استنارة القمر ، أبشر يا كعب بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك ثم تلا علينا الآية » .

وفى هذه القصة عبرة للمؤمنين تخشع لها قلوبهم وتفيض لها عبراتهم ، وقد كان الإمام أحمد لايبكيه شىء من القرآن كما تبكيه هذه الآيات .

انظر إلى هذا وتأمل قسوة قلوب الجاهلين المغرورين الذين يقترفون الفواحش والمنكرات ويتركون الفرائض ويصرون على ما فعلوا وهم يعلمون ولا يتوبون إلى الله ولا هم يذّكرون ، وإذا وعظهم الواعظ وجدهم بين جازم بالمغفرة والعفو عنه ، ومتكل على شفاعة الشافعين له ، ومنهم من يحفظ من أخبار مكفرات الذنوب مما لا أصل له فى الدين ، أو له أصل يراد به تكفير الصغائر بشرط اجتناب الكبائر، كما قال تعالى : « إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَاتُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ » .

(يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) أى يأيها الذين آمنوا بالله ورسوله اتقوا الله وراقبوه بأداء فرائضه واجتناب نواهيه ، وكونوا فى الدنيا من أهل ولاية الله وطاعته تكونوا فى الآخرة مع الصادقين فى الجنة ، ولا تكونوا مع المنافقين الذين يتنصلون من ذنوبهم بالكذب ويؤيدونه بالحلف .

أخرج الحاكم عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الكذب لايصلح منه جد ولا هزل ، ولا يعدِ الرجل ابنه ثم لا ينجز له ، اقرءوا إن شئتم : يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » وأخرج البيهقى مرفوعا « إن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، إنه يقال للصادق : صدق وبر ، ويقال للكاذب : كذب وفجر ، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صدّيقا ، ويكذب حتى يكتب عند الله كذابا » .

ولا رخصة فى الكذب إلا لضرورة من خديعة حرب ، أو إصلاح بين اثنين ، أو رجل يحدث امرأته ليرضيها أى فى التحبب إليها بوصف محاسنها ورضاه عنها ، لا فى مصالح الدار والعيال وغيرها .

أخرج ابن أبى شيبة وأحمد عن أسماء بنت يزيد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب فى خديعة حرب أو إصلاح بين اثنين أو رجل يحدث امرأته ليرضيها » .

ولا شك أن فى المعاريض ما يغنى العاقل عن الكذب كما جاء فى الحديث « إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب » .

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) .

شرح المفردات

رغب فى الشيء : أحبه وآثره ، ورغب عنه ، كرهه: وقد جمع بينهما فى الآية . والظمأ : شدة العطش ، والنصب : الإعياء والتعب ، والمخمصة : الجوع الشديد ، والغيظ : الغضب ، ونيلا : أى أسرا وقتلا وهزيمة ، والوادى: كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذا للسيل .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عزّ اسمه توبته على المتخلفين الذين حسنت نياتهم ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ــ أكد هنا وجوب متابعة الرسول والغزو معه لما فيه من الأجر العظيم ، وحظر تخلف أحد عنه إلا بإذنه .

الإيضاح

(ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه) أى لاينبغى لأهل المدينة حاضرة الإسلام ومقر الرسول صلى الله عليه وسلم ولا من حولهم من الأعراب كمزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم - أن يتخلفوا عن رسول الله فى غزو فى سبيل الله كما فعل بعضهم فى غزوة تبوك ، ولا فى غيره من شئون الأمة ومصالح الملة ، ولا أن يفضلوا أنفسهم على نفسه فيرغبوا فى الراحة والسلامة ولا يبذلوها فيما يبذل فيها نفسه الشريفة ، بل عليهم أن يصحبوه فى البأساء والضراء وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط ، علما بأنها أعز نفس على الله وأكرمها ، فإذا تعرضت مع كرامتها للخوض فى شدة وهول وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرضت له ولا يكترث لها أصحابها فضلا عن أن يربئوا بأنفسهم عن متابعتها ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه .

والخلاصة — إن المتخلف يفضل نفسه ويؤثرها على نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم التى لا يكمل إيمان أحد حتى يحبه أكثر من حبه لنفسه .

وفى ذلك نهى شديد عن عملهم وتوبيخ لهم عليه وتهييج لمتابعته صلى الله عليه وسلم بأنفة وحمية .

(ذلك بأنهم لايصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولاينالون من عدوّ نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح) أى لم يكن لهم حق التخلف ، بل يجب عليهم الاتباع بسبب أن كل مايصيبهم فى جهادهم من أذى وإن كان قليلا كظمأ لقلة الماء ، أو نصب لبعد الشقة ، أو لقلة الظهر ، أو مجاعة لقلة الزاد ، ومن إيذاء للعدو وإن صغر كوطء أرضه الذى يعده استهانة بقوته فيغيظه أن تمسّه أقدام المؤمنين أو حوافر خيولهم ، أو النيل منه بجرح أو قتل أو أسر أو هزيمة أوغنيمة - إلا كتب لهم بكل واحد مما ذكر عمل صالح يجزى عليه

بالثواب العظيم ، وما أكثر هذه الأعمال الصالحات التى تشمل كل حركة من بطشة يد أو وطأة قدم أو عروض جوع أو عطش أو نحو ذلك .

وفى الآية إيماء إلى أن من قصد خيرا كان سعيه فيه من قيام أو قعود أو مشى أو كلام أو نحو ذلك مشكورا مثابا عليه ، وإلى أن المدد القادم بعد انقضاء الحرب يشارك الجيش فى الغنيمة لأن وطء ديارهم مما يغيظهم ، ولقد أسهم النبى صلى الله عليه وسلم لابنى عامر وقد قدما بعد تقضى الحرب .

ثم علل هذا الأجر العظيم بقوله :

(إن الله لايضيع أجر المحسنين) أى إن الله لايدع محسنا أحسن فى عمله فأطاعه فيما أمره وانتهى عما نهاه عنه ــ أن يجازيه على إحسانه ويثيبه على صالح عمله ، ومن ثم كتب لمن أطاعه من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب الثواب على كل مافعلوا فلم يُضع لهم أجرا على عمل عملوه .

(ولاينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولايقطعون واديا إلا كتب لهم) أى كذلك شأنهم فيما ينفقون فى سبيل الله صغر أو كبر ، قلّ أو كثر ، وفى كل واد يقطعونه فى سيرهم غادين أو رائحين ــ إلا كتب لهم أجرهم على ذلك جزاء لهم على عملهم ولايترك شىء منه أو ينسى .

(ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) أى ليجزيهم بكتابته فى صحف أعمالهم كأحسن مايجزيهم على خير أعمالهم التى كانوا يعملونها وهم مقيمون فى منازلهم .

وخلاصة ذلك ــ إنه تعالى يجزيهم بكل عمل مما ذكر جزاء أحسن من جزائهم على أعمالهم الجليلة فى غير الجهاد بالمال والنفس بأن تكون النفقة الصغيرة فيه كالنفقة الكبيرة فى غيره من أنواع المبرات ، والمشقة القليلة فيه كالمشقة الكبيرة فيما عداه من الأعمال الصالحات .

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) .

شرح المفردات

نفر : خرج للقتال ، ولولا : كلمة تفيد الحض والحث على مايدخل عليها إذا كان مستقبلا ، واللوم على تركه إذا كان ماضيا ، فإن كان مما يمكن تلافيه فربما أفاد الأمر به ، والفرقة : الجماعة الكثيرة ، والطائفة : الجماعة القليلة ، وتفقه : تكلف الفقاهة والفهم وتجشم مشاق تحصيلها ، وأنذره : خوّفه ، وحذره : تحرز منه .

المعنى الجملى

هذه الآية جاءت متممة لأحكام الجهاد مع بيان حكم العلم والتفقه فى الدين من قِبَل أنه وسيلة للجهاد بالحجة والبرهان، وهوالركن الركين فى الدعوة إلى الإيمان و إقامة دعائم الإسلام ، ولم يشرع جهاد السيف إلا ليكون حماية وسياجا لتلك الدعوة من أن تلعب بها أيدى المعتدين من الكافرين والمنافقين .

روى الكلبي عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لما شدد الله على المتخلفين قالوا لايتخلف منا أحد عن جيش أو سرية أبدا ففعلوا ذلك و بقى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده فنزل (وما كان المؤمنون) الآية .

الإيضاح

(وما كان المؤمنون لينفروا كافة) أى ما كان شأن المؤمنين ولا مما يطلب منهم أن ينفروا جميعا فى كل سرية تخرج للجهاد ، فإنه فرض كفاية متى قام به بعض سقط

عن الباقين ، لافرض عين على كل شخص ، وإنما يجب ذلك إذا خرج الرسول واستنفرهم للجهاد .

(فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) أى فهلا نفر للقتال من كل فرقة كبيرة منهم كأهل بلد أو قبيلة طائفة وجماعة ليتسنى لهم : أى للمؤمنين فى جملتهم التفقه فى الدين ، بأن يتكلف الباقون فى المدينة الفقاهة فى الدين بما يتجدد نزوله على الرسول صلى الله عليه وسلم من الآيات وما يكون منه صلى الله عليه وسلم من بيانها بالقول والعمل ، فيعرف الحكم مع حكمته ، ويوضح المجمل بالعمل به ، ولينذروا قومهم الذين نفروا للقاء العدو إذا رجعوا إليهم : أى ليجعلوا أهمّ قصد لهم من الفقاهة إرشاد هؤلاء وتعليمهم ، وإنذارهم عاقبة الجهل وترك العمل بما علموا ، رجاء أن يخافوا الله ويحذروا عاقبة عصيانه ، وأن يكون جميع المؤمنين علماء بدينهم قادرين على نشر دعوته والحجاج عنه وبيان أسراره للناس لا أن يوجهوا أنظارهم إلى الرياسات والمناصب العالية والترفع عن سواد الناس وكسب المال والتشبه بالظلمة والجبارين فى ملابسهم ومراكبهم ومنافسة بعضهم بعضا .

وفى الآية إشارة إلى وجوب التفقه فى الدين والاستعداد لتعليمه فى مواطن الإقامة وتفقيه الناس فيه بالمقدار الذى تصلح به حالهم فلا يجهلون الأحكام الدينية العامة التى يجب على كل مؤمن أن يتعرفها ، والناصبون أنفسهم لهذا التفقه على هذا القصد لهم عند الله من سامى المراتب مالا يقل فى الدرجة عن المجاهد بالمال والنفس فى سبيل إعلاء كلمة الله والذود عن الدين والملة ، بل هم أفضل منهم فى غير الحال التى يكون فيها الدفاع واجبا عينيا على كل شخص .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) .

المعنى الجملى

لما أمر سبحانه فيما سبق بقتال المشركين كافة ـ أرشدهم فى هذه الآية إلى طريق السداد فى هذا الباب ، وهو أن يبدءوا بقتال من يليهم ثم ينتقلوا إلى الأبعد فالأبعد وهكذا ، وقد فعل النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته كذلك ، فقد حارب قومه ثم انتقل إلى غزو سائر العرب ثم إلى غزو الشام ، ولما فرغ صحابته من الشام دخلوا العراق ؛ وكذلك فى أمر الدعوة فقد قال تعالى : «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» ثم أمر بالدعوة العامة وقتال من يقف فى طريقها من المشركين فقال : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ » .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) أى قاتلوا الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام ، ذاك أن القتال إنما شرع لتأمين الدعوة إلى الدين والدفاع عن أهله ، وقد كانت الدعوة موجهة إلى الأقرب فالأقرب من الكفار كما قال تعالى لرسوله : « لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا » .

وهذا الترتيب أولى لوجوه كثيرة: منها قلة النفقات، والحاجة فيه إلى الدواب والآلات، وسهولة معرفة حال الأقرب من الأسلحة والعسكر ، ولأن ترك الأقرب والاشتغال بالأبعد لا يؤمن معه من هجوم العدو على الذرارى والضعفاء ، ومن ثم كان هذا هو الطريق المتبع فى الدعوة والنفقات والصدقات وما يدار فى المجالس من شراب ونحوه، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يعطى من على يمينه وإن لم يكن أفضل الجالسين ثم الذى يليه ثم الذى يليه ، وقال للأعرابى الذى كان يمد يده إلى الجوانب البعيدة من المائدة « كل مما يليك » .

(وليجدوا فيكم غلظة) الغلظة (مثلثة) : الشدة والخشونة ، أى وليجدوا

فيكم جرأة وصبرا على القتال وعنفا فى القتل والأسر ونحو ذلك كما قال : « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ » .

والغلظة فى زمن الحرب مما تقتضيه الطبيعة والمصلحة ، لما فيها من شدة الزجر والمنع عن القبيح .

وفى الآية إيماء إلى أنه قد يحتاج حيناً إلى الرفق واللين ، وأخرى إلى العنف والشدة ، لأن يقتصر على الغلظة فقط فإن ذلك مما ينفر ويوجب تفرق الناس عنهم .

وإنما أمروا بذلك فى القتال ومايتصل بالدعوة إلى الإسلام ، للإرشاد إلى أنه يجب أن تكون حالهم فى الأمور العامة مبنية على الرفق والعدل والتؤدة فى المعاملة ومن ثم صار ذلك من أخص صفات المسلمين .

(واعلموا أن الله مع المتقين) أى واعلموا أن الله معكم بالمعونة والنصر إذا اتقيتموه وراعيتم أحكامه وسننه ، وابتعدتم عن التقصير فى أسباب النصر والغَلَب من إعداد العُدد المناسبة للزمان والمكان التى عناها الله بقوله (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) ومن الثبات والصبر ، والطاعة وحسن النظام ، وترك التنازع والاختلاف ، وكثرة ذكر الله والتوكل عليه فيما وراء الأسباب والسنن المعروفة .

وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ؟ ثُمَّ انْصَرَفُوا ، صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ضروبا من مخازى المنافقين كتخلفهم عن غزوة تبوك وتعلقهم لذلك بالأيمان الفاجرة ـ ذكر هنا ضروبا أخرى من تلك المثالب كتهكمهم بالقرآن وتسللهم لواذا حين سماعه ، وهذا آخر مانزل مما يبين تأثير القرآن فيهم وفى المؤمنين .

الإيضاح

(وإذا ما أنزلت سورة) أى وإذا أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم سورة من سور كتابه الكريم ، فمن المنافقين من يقول لإخوانه على سبيل الاستهزاء هذه المقالة ليثبتوا على النفاق ، أو يقول لمن يلقاه من المؤمنين مشككا لهم : (أيكم زادته هذه) السورة (إيمانا) أى يقينا بحقية القرآن والإسلام وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، أى أيكم زادته تصديقا جازما مقترنا بإذعان النفس وخضوعها ، وأشعرته بلزوم العمل بها لتيقنه بصدق الرسول الذى أنزلت عليه .

والإيمان على هذا النحو يزيد بنزول القرآن فى عهد الرسول ولاسيما من يحضر نزوله ويسمعه منه ، وكذا يزيد بسماعه من غيره فى قلب المؤمن قوة إذعان ورغبة فى العمل والقرب من الله .

قال تعالى مجيبا عن هذا السؤال مبينا حالهم وحال المؤمنين فقال :

(فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون) أى فأما المؤمنون فيزيدهم نزول القرآن زيادة اليقين واطمئنان القلب ، ويزيدهم قوة فى العمل به والتقرب إلى ربهم ، وهم يستبشرون بنزولها لما يرجون من خير هذه الزيادة ، بتزكية أنفسهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة .

(وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون) أى وأما الذين فى قلوبهم شك وارتياب دعاهم إلى النفاق بإسرار الكفر وإظهار

الإسلام ، فزادتهم كفرا ونفاقا مضموما إلى كفرهم ونفاقهم السابق ، واستحوذ ذلك عليهم واستحكم فيهم إلى أن ماتوا على الكفر والنفاق على مقتضى سننه تعالى فى تأثير الأعمال فى صفات النفس وتغيير هواجس الفكر .

ثم عجّب من حالهم وقد كان لهم زاجر فيما يرون فقال :

(أو لا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ؟) أى أيجهلون هذا و يغفلون عن حالهم فيما يعرض لهم عاما بعد عام من ضروب الابتلاء والاختبار التى تظهر استعداد النفوس للإيمان والكفر والتفرقة بين الحق والباطل ، و ينظرون إلى الآيات الدالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فى كل ما أخبر به من نصر الله لمن اتبعه وخذلان أعدائه ووقوع ما أنذرهم به ، ومن إنباء الله بما فى قلوبهم وفضيحتهم بما يكتمون من أعمالهم .

(ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون) أى ثم هم مع كل هذا تمر عليهم الأعوام تلو الأعوام ولا يتوبون من نفاقهم ولا يتعظون بما يحل بهم من العذاب ، أفبعد هذا برهان على قلة الاستعداد للإيمان وانطفاء نور الفطرة ، ولله در القائل :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفمّ طعم الماء من سقم

و بعد أن بين حال تأثير إنزال السورة فى المنافقين وهم غائبون عن مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم — بين حالهم وهم فى مجلسه صلى الله عليه وسلم حين نزولها واستماع تلاوته لها فقال :

(و إذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض) أى و إذا أنزلت سورة وهم فى المجلس تسارقوا النظر وتغامزوا بالعيون ، على حين تخشع أبصار المؤمنين وتنحنى رءوسهم ، وتشاوروا فى الانسلال من المجلس خفية لئلا يفتضحوا بما يظهر عليهم من سخرية و إنكار ، قائلا بعضهم لبعض :

(هل يراكم من أحد ؟) أى هل يراكم الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو المؤمنون إذا قمتم من المجلس .

(ثم انصرفوا) أى ثم انصرفوا جميعا عن مجلس الوحى متسللين لواذاً كراهة منهم لسماعه وانتظارا لسنوح فرصة الغفلة عنهم ، فكلما لمح أحد منهم غفلة عنه انصرف .

(صرف الله قلوبهم) أى صرف الله قلوبهم عن الإيمان الصادق والاسترشاد بآيات كتابه إلى ما فى ملكوت السموات والأرض من دلائل قدرته .

وهذه الجملة : إما إخبار بذلك ، أو دعاء عليهم به ، والمآل فى هذا واحد فى كلامه تعالى .

(بأنهم قوم لايفقهون) أى ذلك الصرف بسبب أنهم قوم فقدوا فهم الحقائق وما يترتب عليها من الأعمال ، فلا يفقهون ما يسمعون من الآيات لعدم تدبرها والتأمل فى معانيها مع موافقتها للعقل وهدايتها إلى الحق والعدل . لأنهم وطنوا أنفسهم على الإعراض عن كل ماجاء به من غير بحث ولا تأمل ، أحق هو أم باطل ، أخير هو أم شر ؟ وأنى لمثل هؤلاء — وتلك حالهم — أن يهتدوا بنزول الآيات والسور ؟ .

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) .

شرح المفردات

من أنفسكم : أى من جنسكم ، وعزيز : أى شاق ، والعنت : المشقة ولقاء المكروه الشديد ، والحرص : شدة الرغبة فى الحصول على مفقود ، وشدة عناية بموجود ، والرأفة : الشفقة ، والرحمة : الإحسان .

المعنى الجملى

لما أمر الله رسوله فى هذه السورة أن يبلغ الخلق تكاليف شاقة يعسر تحملها إلا على من خص بوجوه التوفيق والكرامة - ختمها بما يوجب تحملهم تلك التكاليف، فبين أن هذا الرسول منهم ، فما يحصل له من عز وشرف فهو عائد إليهم ، إلى أنه يشق عليه ضررهم ، وتعظم رغبته فى إيصال خيرى الدنيا والآخرة إليهم فهو كالطبيب المشفق والأب الرحيم عليهم ، والطبيب الحاذق ربما أقدم على علاج يصعب تحمله ، والأب الرحيم ربما ركن إلى ضروب من التأديب يشق على النفس احتمالها كما قال :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فَلْيَقْسُ أحيانا على من يرحم

قال أُبىّ بن كعب رضى الله عنه : إن هاتين الآيتين آخر ما نزل من القرآن ، لكن روى الشيخان عن البراء بن عازب أنه قال : آخر آية نزلت (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلَالَةِ) وآخر سورة نزلت براءة ، وعن ابن عباس : آخر آية نزلت (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ) وكان بين نزولها وموته صلى الله عليه وسلم ثمانون يوما .

الإيضاح

(لقد جاءكم رسول من أنفسكم) أى لقد جاءكم أيها العرب رسول من جنسكم ، والآية بمعنى قوله « هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ » .

ذاك أن منّته على قومه أعظم ، وحجته بكتابه أنهض ، وأولى قومه به قبيلته قريش ثم عشيرته الأقربون بنو هاشم و بنو المطلب ، ولو لم يؤمن به و بكتابه العرب لما آمن العجم ، وقد وجه دعوته إلى الأقرب فالأقرب ، فآمن العرب بدعوته مباشرة ، وآمن العجم بدعوة العرب ، والعرب آمنوا بفهم القرآن و بيانه له صلى الله عليه وسلم بالتبليغ والعمل وبما شاهدوا من آيات الله فى شخصه .

وقد امتنّ الله عليه وعلى قومه بالقرآن المجيد فقال « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ

وَلِقَوْمِكَ » أى وإنه لشرف لك ولهم تذكرون به فى العالم ويُدَوّن لكم فى بطون الكتب والدفاتر .

وإنما قاومه أكابر قومه أنفَةً واستكبارا عن اتباعه ، إذ هم يرونه دونهم - إلى أن فى اتباعه إقْرَارًا بكفرهم وكفر آبائهم الذين يفاخرون بهم ، إلى أنهم لم يكونوا على ثقة من فوزه ونيلهم باتباعه مجد الدنيا وسعادة الآخرة .

(عزيز عليه ما عنتم) أى شديد عليه عنتكم ولقاؤكم المكروه لأنه منكم ، فليس من الهين عليه أن تكونوا فى الدنيا أمة ذليلة يعنتها أعداؤها بالسيطرة عليها والتحكم فيها ، ولا أن تكونوا فى الآخرة من أصحاب النار التى وقودها الناس والحجارة .

(حريص عليكم) أى حريص على اهتدائكم وصلاح شأنكم كما قال الله تعالى « وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ » .

(بالمؤمنين رءوف رحيم) أى هو شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين ، فكل مايدعو إليه من العمل بشرائع الله فهو دليل على ثبوت هذه الصفات له ، وكل شاق منها كالجهاد فهو منجاة مما هو أشق منه .

وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال فى قوله (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إنه ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبى صلى الله عليه وسلم مضريّها وربيعيها ويمانيها - يريد أن نسبه تشعب فى جميع قبائل العرب وبطونها .

(فإن تولوا فقل حسبى الله) أى فإن تولوا وأعرضوا عن الإيمان بك والاهتداء بما جئتهم به ، فقل حسبى الله فإنه يعينك عليهم ويكفيك أمر توليهم وما يتبعه من عداوتهم وصدهم عن سبيله ، وقد بلّغت وماقصرت .

(لا إله إلا هو) أى لا معبود سواه ألجأ إليه بالدعاء والإعانة ، وهو الكافى والمعين .

(عليه توكلت) أى عليه وحده توكلت ، فلا أَكِلُ أَمْرِى فيما أعجز عنه إلى غيره .

(وهو رب العرش العظيم) العرش مركز تدبير أمور الخلق كما قال تعالى « ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ » وعظمته بعظمة الرب الذى استوى عليه ، وعظمة الملك الكبير الذى هو مركز تدبيره ، وعظمةُ العرش والملك فى الملأ الأعلى وفيما دونه هى مظهر عظمة الله سبحانه وتعالى ، ودليل على أنه وحده الإله الحق الذى لا ينبغى أن يعبد غيره ولا يتوكل على سواه ، وهو المالك للعالم كله والمدبر لهم .

روى أحمد والبخارى والترمذى وغيرهم عن زيد بن ثابت فى جمع القرآن وكتابته فى عهد أبى بكر أنه قال : حتى وجدت من سورة التوبة آيتين عند خزيمة الأنصارى لم أجدهما مع أحد غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى آخرها ـ يريد أنه لم يجدهما مكتوبتين عند ما جمع المكتوب فى الرقاع والأكتاف والعسب إلا عنده ، وقد كانتا محفوظتين معروفتين للكثير كما صرح بذلك فى الروايات الأخرى ، فقد أخرج ابن أبى داود فى المصاحف عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال : أتى الحرث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة (لقد جاءكم رسول من أنفسكم ـ إلى قوله وهو رب العرش العظيم) إلى عمر فقال : من معك على هذا ؟ فقال : لا أدرى والله إلا أنى أشهد لسمعتهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعيتهما وحفظتهما ، فقال عمر : وأنا أشهد لسمعتهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو كانت ثلاث آيات لجعلتهما سورة على حدة ، فانظروا سورة من القرآن فألحقوها بها ، فألحقت فى آخر براءة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر أن رجلا من الأنصار جاء بهما عمر ، فقال عمر لا أسألك عليها بينة أبدا ، كذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها .

ومن هذه الروايات يعلم أن الآيتين كانتا محفوظتين مشهورتين، إلا أنهم اختلفوا فى موضعهما ففى بعضها أنهما آخر سورة براءة بالتوقيف من النبى صلى الله عليه وسلم، وفى بعضها أنهما وضعتا بالرأى والاجتهاد ، ولكن المعتمد هو الأول ، لأن من حفظ التوقيف حجة على من لم يحفظ .

قال الحافظ بن حجر فى شرح البخارى : إن زيدا لم يكن يعتمد فى جمع القرآن على علمه ولا يقتصر على حفظه ، واكتفاؤه بخزيمة وحده إنما كان لأنه لم يجدها مكتوبتين عند غيره ، وإن كانتا محفوظتين عنده وعند غيره ، وحسبك دليلا على ذلك قوله : إنهم كانوا يسمعون رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ، فهو صريح فى أن البحث عمن كتبها فقط اهـ .

فجملة القول إن الآيتين كانتا محفوظتين ومكتوبتين ومعروفتين لكثير من الصحابة ، وإنما اختلفوا حين الجمع فى موضع كتابتهما حتى شهد من شهد أن النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى وضعهما فى آخر سورة براءة ، وفاقا لقول أُبىّ بن كعب وهو أحد الذين تلقوا القرآن كله مرتبا عن النبى صلى الله عليه وسلم وكذا زيد بن ثابت وكان عدد المختلفين فى موضعهما قليلا ، فلما كُتِبَتَا فى المصاحف وافق الجميع على وضعهما هذا ، ولم يروا أى اعتراض على ذلك ممن كتبوا لأنفسهم مصاحف اعتمدوا فيها على حفظهم كابن مسعود رضى الله عنه .

ســــورة يونس

مكية إلا الآيات ٤٠ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ نزلت بعد سورة الإسراء وقبل سورة هود ، وعدد آيها تسع ومائة ، وموضوعها يدور على إثبات أصول التوحيد وهدم الشرك و إثبات الرسالة والبعث والجزاء وما يتعلق بذلك من مقاصد الدين وأصوله ، وهى موضوعات السور المكية .

ووجه مناسبتها لما قبلها أن السابقة ختمت بذكر رسالة النبى صلى الله عليه وسلم واخْتُتِمَتْ بها هذه ، وأن جلّ تلك فى أحوال المنافقين وما كانوا يقولونه وما كانوا يفعلونه حين نزول القرآن ، وهذه فى أحوال الكفار وما كانوا يقولونه فى القرآن .

وليس التناسب بين السور سببا فى هذا الترتيب الذى بينهما ، فكثيرا ما نرى سورتين بينهما أقوى تناسب فى موضوع الآيات ، وقد فصل بينهما كما فعل بسورتى الهمزة واللهب وموضوعهما واحد ، وقد يُجمع بينهما تارة أخرى كما فعل بين سور الطواسين ، وسور آل حاميم ، وسورتى المرسلات والنبأ .

ومن الحكمة فى الفصل بين القوية التناسب فى المعانى ـ أنه أدنى إلى تنشيط تالى القرآن وأبعد به عن الملل وأدعى له إلى التدبر ، ولهذه الحكمة عينها تفرق مقاصد القرآن فى السورة الواحدة كالعقائد والأحكام العملية والحكم الأدبية والترغيب والترهيب والأمثال والقصص ، والعمدة فى كل ذلك التوقيف والسماع .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٢) .

شرح المفردات

الكتاب : هو القرآن العظيم ، والحكيم : ذو الحكمة، لاشتمال الكتاب عليها ، والوحى : الإعلام الخفى لامرئ بما يخفى على غيره ، والإنذار : الإخبار بما فيه تخويف والتبشير : الإعلام المقترن بالبشارة بحسن الجزاء ، والصدق : يكون فى الأقوال ويستعمل فى الأفعال ، فيقال صدق فى القتال إذا وفّاه حقه ، وكذب فيه إذا لم يفعل ذلك ، و يطلق على الإيمان والوفاء وسائر الفضائل ، وجاء فى التنزيل : مقعد صدق ، ومدخل صدق ، ومخرج صدق ، وقدم صدق ، و يراد بالقدم هنا السابقة والتقدم والمنزلة الرفيعة ، سحر : أى يؤثر فى القلوب و يجذب النفوس فهو جار مجرى السحر ، ومبين : ظاهر .

الإيضاح

(الر) هذه الحروف تقرأ ساكنة غير معربة هكذا : ألف . لام ، را . والأخير منها غير مهموز ، والحكمة فى مجيئها أول السورة تنبيه السامع إلى مايتلى عليه بعدها لأجل العناية بفهمه حتى لايفوته شىء مما يسمع ، فهى من وادى حروف التنبيه نحو (ألا) و (ها) الداخلة على اسم الإشارة .

(تلك آيات الكتاب الحكيم) أى تلك آيات الكتاب المحكم الذى أحكمه الله و بينه لعباده كما قال جل شأنه : « الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ » ذاك أنه كتاب أحكمت معانيه ومبانيه ، وهو هادٍ لمتدبره وواعيه .

(أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم) أى عجيب من أمرهم أن ينكروا إنزال الوحى على رجل من جنسهم ويتخذوه أعجوبة بينهم يتفكهون بها و يستغربون شأنها ، كأن مشاركتهم له فى البشرية يمنع اختصاص الله إياه بما شاء من العلم ، وهو

يعنى قوله تعالى حكاية عنهم « أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولاً » وقوله : « لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً » .

وهـذه الشبهة التى تمسكوا بأذيالها قد سبق إليها أقوام الأنبياء قبلهم كما جاء فى قصة نوح وهود من سورة الأعراف « أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ ؟ » .

وقد يكون وجه العجب كونه من أفنائهم من جهة المال كما جاء على لسانهم وحكاه الله عنهم « لَوْلَا نُزِّلَ هَـذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » وحكى عنهم أنهم قالوا : العجب أن الله تعالى لم يجد رسولا إلا يتيم أبى طالب .

فإن كانوا قد عنوا الأول ، فهو عجب عاجب لأن بعث الملك إنما يتسنى إذا كان المبعوث إليهم ملائكة كما قال تعالى منكرا عليهم ذلك « قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولاً » .

وإن كانوا أرادوا الثانى فهو أغرب منه ، لأن مدار الاصطفاء للايحاء هو التبريز فى إحراز الفضائل ونيل المكرمات ، وللنبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك القدح المعلّى فقد شهر من بينهم بالأمانة والصدق وحسن السمعة وبلوغ الغاية فى الكمالات ، ولله در القائل :

خلقت مبرّأ من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

وقال الآخر :

ولو صورت نفسك لم تزدها على مافيك من كرم الطباع

وليس للتقدم فى حظوظ الدنيا ولا للسبق فى رياساتها مدخل فى ذلك لا بقبيل ولا دبير ولا قليل ولا كثير ، فليس الغنى سببا للقرب والزلفى عند الله كما قال تعالى : « وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى » .

(أن أنذر الناس) أى أوحينا إليه بأن أنذر الناس كافة وأعلمهم بالتوحيد والبعث وسائر مقاصد الدين مع التخويف بعاقبة ماهم فيه من كفر وضلال .

(وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم) أى وبشر الذين آمنوا بما أوحيناه إليك بأن لهم أعمالا صالحة استوجبوا بها الثواب منه تعالى ، ومنزلة رفيعة نالوها بصدق القول وحسن النية .

(قال الكافرون إن هذا لسحر مبين) أى فلما أتاهم بوحى الله وتلاه عليهم قال المنكرون لتوحيد الله ورسالة رسوله: إن هذا الذى جاء به محمد لسحر مبين أى ظاهر واضح يبين لكم أنه مبطل فيما يدعيه .

وجعلوه سحرا لأنه خارق للعادة فى تأثيره فى القلوب وجذبه النفوس إلى الإيمان به واحتقار الحياة ولذاتها فى سبيل الله .

وخلاصة ذلك — إنه كلام مزخرف حسن الظاهر لكنه واضح البطلان فى الحقيقة .

وقد كذبوا فى تسميته سحرا ، لأن السحر ما يكون بأسباب خفية يتعلمها بعض الناس من بعض إما بالحيل والشعوذة ، وإما باستخدام خواص طبيعية علمية مجهولة للجماهير ، وإما بتأثير قوى النفس وتوجيه الإرادة ، وجميعها من الأمور التى يشترك فيها الكثير من العارفين بها ، والقرآن ليس بسحر يؤثر بالعلم والصناعة ، بل هو أقوال مشتملة على آداب عالية وتشريع حكيم فيه مصلحة للناس ، معجز فى أسلوبه ونظمه ومعانيه ، أتى على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ليبلغه للناس ، ولم يكن ليقدر على شىء من مثله ، وبهذا ثبت أنه نبي من عند الله ، وأن ما جاء به وحى من لدنه .

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ، مَامِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ، ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

بِالْقِسْطِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) .

شرح المفردات

الخلق : لغة التقدير، واليوم: لغة الوقت الذى يحده حدث يحدث فيه وإن كان ألوف السنين من أيام هذه الأرض الفلكية التى وجدت بعد خلق الليل والنهار ، والعرش: مركز التدبير ولا نعلم كنهه ولا صفته، والتدبير: النظر فى أدبار الأمور وعواقبها لتقع على الوجه المحمود ، وتدبير الأمر ، أو القول : هو التفكر فيما وراءه وما يراد منه وينتهى إليه ، والقسط : العدل ، والحميم : الماء الشديد الحرارة .

المعنى الجملى

بعد أن افتتح سبحانه السورة بذكر آيات الكتاب ، وأنكر على الناس عجبهم أنه يوحى إلى رجل منهم، يبشرهم على الأعمال الصالحة بالثواب ، وينذرهم على الكفر والمعاصى بالعقاب ــ قفى على ذلك بذكر أمرين :

(١) إثبات أن لهذا العالم إلها قادرا نافذ الحكم بالأمر والنهى يفعل ما يشاء وهو العليم الخبير .

(٢) إثبات البعث بعد الموت والجزاء على الأعمال من ثواب وعقاب وهما اللذان أخبر بهما الأنبياء .

الإيضاح

(إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر) أى إن ربكم هو الله الذى خلق العوالم السماوية التى فوقكم ، وهذه الأرض التى تعيشون على ظهرها فى ستة أزمنة قد تمّ فى كل زمن منها طور من

أطوارها وقدرها بمقادير أرادها ، ثم استوى على عرشه الذى جعله مركز هذا التدبير لهذا الملك العظيم ، استواء يليق بعظمته وجلاله ، يدبر أمر ملكه بما اقتضاه علمه من النظام واقتضته حكمته من الإحكام ، ولا يستنكر من رب هذا الخلق المدبر لأمور عباده أن يفيض ما شاء من علمه على من اصطفى من خلقه ، مايهديهم به لما فيه كمالهم من عبادته وشكره ، وبذلك تصلح أنفسهم وتطهر قلوبهم وتستنير أفئدتهم لتتم لهم بذلك الحياة السعيدة فى الدنيا والنعيم المقيم فى الآخرة ، كما لا يستنكر أن هذا الوحى منه عزّ وجل ؛ إذ هو من كمال تقديره وتدبيره ولا يقدر عليه سواه .

(ما من شفيع إلا من بعد إذنه) أى لا يوجد شفيع يشفع لأحد عنده تعالى إلا من بعد إذنه ، والآية بمعنى قوله سبحانه « مَنْ ذَا الذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بِإِذْنِهِ » وقد جاء فى كتابه تعالى أنه لا يشفع أحد عنده بإذنه إلا من ارتضاه للشفاعة كما قال : « يَوْمَئِذٍ لاَتَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً » ومن أذن له بالشفاعة لا يشفع إلا لمن رضى له الرحمن لإيمانه وصالح عمله كما قال : « وَلاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى » .

وفى هذا إيماء لدحض العقيدة التى كان يعتقدها مشركو العرب ومقلدوهم من أهل الكتاب من أن الأصنام والأوثان وعبادة المقربين من الملائكة والبشر يشفعون لهم عند الله بما يدفع عنهم الضرر ويجلب لهم النفع كما حكى الله عن عبدة الأصنام قولهم « مَانَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إلَى اللهِ زُلْفَى » .

وفى هذه العقيدة حجة عليهم إذ يقال لهم ــ إنكم إذا كنتم تؤمنون بأن لله شفعاء من أوليائه وعباده المقربين يشفعون لكم بما يقربكم إليه زلفى . وهو قول عليه تعالى بغير علم ــ فما بالكم تنكرون وتعجبون أن يوحى إلى من يشاء ويصطفى من عباده من يعلمهم مايهديهم إلى العمل الموصل إلى السعادة والهادى إلى طريق الرشاد.

(ذلكم الله ربكم فاعبدوه) أى ذلكم الموصوف بالخلق والتقدير والحكمة والتدبير والتصرف فى أمر الشفاعة يأذن بها لمن يشاء ــ هو الله ربكم المتولى ش

فاعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا ولا معه أحدا لا فى شفاعة ولا غيرها ، فالشفعاء لايملكون لكم من دونه نفعا ولا ضرا ، وإنما هو الذى يملك ذلك وحده وهو قد هداكم إلى أسباب النفع والضر الكسبية بالعقول والمشاعر التى سخرها لكم ، وإلى أسباب النفع والضر الغيبية بوحيه ، فلا تطلبوا نفعا ولا ضرا إلا بالأسباب التى سخرها لكم ، وما تعجزون عنه أو تجهلون أسبابه ، فادعوه فيه تعالى وحده يحصل لكم ما فيه ترغبون أو يدفع عنكم ما تكرهون .

(أفلا تذكرون) أى أتجهلون هذا الحق الواضح فلا تتذكرون أن الذى خلق السموات والأرض ، وانفرد بتدبير هذا العالم هو الذى يجب أن يعبد ولا يعبد سواه، وذلك هو مقتضى الفطرة ، والإعراض عنه غفلة يجب التنبيه إليها .

وفى ذلك إيماء إلى أنه لاينبغى أن نوجه وجوهنا شطر قبور الأولياء والصالحين ونشد الرحال إلى من بَعُد منهم ونتقرب إليهم بالنذور ونطوف بهم كما يطوف الحاج بيت الله الحرام ، داعين متضرعين خاشعين نطلب منهم ماعجزنا عنه بكسبنا من دفع ضر أو جلب نفع ، وكيف لانتذكر هذه الآيات وأمثالها التى تجعل العبادة خاصة به تعالى ، وما الدعاء إلا مخ العبادة وروحها وأجلى مظاهرها كما جاء فى الأثر « الدعاء مخ العبادة » .

ولكن أكثر العلماء وجمهرة الناس يتأولون هذه العبادة ويسمونها توسلا واستشفاعا ، والأسماء لاتغير من قيمة الحقائق شيئا ، فذلك بعينه هو ما كان يدعيه المشركون وأهل الكتاب « مَانَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى » .

(إليه مرجعكم جميعا) أى إلى ربكم وحده دون غيره من معبوداتكم وشفعائكم وأوليائكم ترجعون جميعا بعد الموت ، وفناء هذا العالم الذى أنتم فيه لايتخلف منكم أحد .

(وعد الله حقا) أى وعد الله ذلك وعدا حقا لاخلف فيه .

(إنه يبدأ الخلق ثم يعيده) أى إن شأنه تعالى أن يبدأ الخلق وينشئه حين [illegible]ون ، ثم يعيده فى نشأة أخرى بعد انحلاله وفنائه .

وقد اتفق العلماء جميعا ماديهم وروحيهم على أن الأرض وجميع الأجرام السماوية قد وجدت بعد أن لم تكن ، وإن كانوا لايزالون يبحثون عن كيفية تلك النشأة والقوة المتصرفة فى أصل مادتها .

وهم جميعا متفقون على توقع خراب هذه الأرض والكواكب المرتبطة بها فى هذا النظام الشمسى الجامع لها بأن تصيب الأرض قارعة من الأجرام السماوية تبسها بسا فتكون هباء منبثا .

وها هو ذا قد حصل البدء بالفعل والإعادة أهون من البدء ، فمن قدر على البدء يكون أقدر على الإعادة كما قال فى سورة الروم : « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » .

ومما يقرب ذلك أن علماء الطبيعة أثبتوا أن هذه الأجساد الحية فى انحلال وتجدد دائمين فما ينحل منها ويبخر فى الهواء أو يموت فى داخل الجسم ثم يخرج منه تحل محله مواد حية جديدة حتى يفنى جسد كل حيوان فى سنين قليلة ويتجدد غيره .

(ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط) أى إنه تعالى يعيدهم لأجل جزائهم بالعدل ، فيعطى كل عامل حقه من الثواب الذى جعله لعمله ، وهذا المعنى قد جاء فى آيات كثيرة كقوله : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا » وقوله : « وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ » .

والعدل فى الأمور كلها مما يتطلبه الإيمان كما قال : « لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ » وقال : « قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ » .

والجزاء بالعدل لايمنع أن يزيدهم ربهم شيئا من فضله ويضاعف لهم كما وعد على ذلك فى آيات أخرى ، منها قوله : « لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ » وقوله : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » .

(والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) أى إن

الكافرين لهم من الجزاء شراب من حميم يقطع أمعاءهم وعذاب شديد الألم بسبب ما كانوا يعملون من أعمال الكفر المستمرة إلى الموت كدعاء غير الله من الأوثان والأصنام، وسائر المعاصي التي يزينها لهم الشيطان ويصدهم بها عن الإيمان.

وتعليل الرجوع إليه تعالى بأنه لجـــزاء المؤمنين الصالحين، بيان منه بأنه المقصود بالذات، إذ هو الذي يكون به منتهى كمال الارتقاء البشري للذين زكوا أنفسهم وطهروا قلوبهم وأخبتوا إلى ربهم فيلقى من عمل الصالحات من النعيم المادي ماهو خال من الشوائب التي تخالطه في نعيم الدنيا، ومن النعيم الروحي (وهو رضوان الله الأكبر) مما لا يعلم كنهه في هذه الحياة أحد كما قال «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ» وجاء في الحديث القدسي «أعددت لعبادي الصالحين ما لاعين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» رواه البخاري.

وأما جزاء الكافرين الظالمين لأنفسهم وللناس على تدسيتهم لأنفسهم بالكفر والخطايا، فليس من المقاصد التي اقتضتها الحكمة الإلهية في خلق الإنسان، ولكنها مقتضى العدل ومقتضى مشيئته تعالى في ارتباط الأسباب بالمسببات والعلل بالمعلولات.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ، مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦).

شرح المفردات

الضوء والنور: بمعنى واحد لغة، والضوء أقوى من النور استعمالا بدليل هذه الآية، وقيل الضوء لما كان من ذاته كالشمس والنار، والنور لما كان مكتسبا من

غيره ، ويدل على ذلك قوله : « وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً » والسراج : نوره من ذاته ، والضياء والضوء ما أضاء لك ، وشعاع الشمس مركب من ألوان النور السبعة التى ترى فى قوس السحاب فهو سبعة أضواء وقد كشف ترقى العلوم الفلكية عن ذلك ، وكان الناس يجهلونه عصر التنزيل ، والتقدير: جعل الشيء أو الأشياء على مقادير مخصوصة فى الذات أو الصفات أو الزمان أو المكان كما قال : « وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا » وقال : « وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ » والمنازل : واحدها منزل ، وهو مكان النزول ، وهى ثمانية وعشرون منزلا معروفة لدى العرب بأسمائها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الآيات الدالة على وجوده ، وهو خلق السموات والأرض على ذلك النظام المحكم ــ ذكر هنا أنواعا من آياته الكونية الدالة على ذلك وعلى أنه خلقها على غاية من الإحكام والإتقان ، وهو تفصيل لما تقدم و بيان له على وجه بديع وأسلوب عجيب .

الإيضاح

(هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا) أى إن ربكم الذى خلق السموات والأرض ــ هو الذى جعل الشمس مضيئة نهارا والقمر منيرا ليلا ، ودبر أمور معاشهم هــذا التدبير البديع ، فأجدر به وأولى أن يدبر أمور معادهم بإرسال الرسل و إنزال الكتب .

(وقدره منازل) أى وقدر سير القمر فى فلكه منازل ينزل فى كل ليلة فى واحد منها لايجاوزها ولايقصر دونها وهى ثمانية وعشرون يرى القمر فيها بالأبصار، وليلة أو ليلتان يحتجب فيهما فلا يرى .

(لتعلموا عدد السنين والحساب) أى لتعلموا بما ذكر من صفة النيرين وتقدير

المنازل حساب الأوقات من الأشهر والأيام لضبط عباداتكم ومعاملاتكم المالية والمدنية، ولولا هذا النظام المشاهد لتعذر العلم بذلك على الأميين من أهل البدو والحضر ؛ إذ حساب السنين والشهور الشمسية لايعلم إلا بالدراسة ، ومن ثم جعل الشارع الحكيم الصوم والحج وعدة الطلاق بالحساب القمرى الذى يعرفه كل أحد بالمشاهدة، ولعبادتى الصيام والحج حكمة أخرى وهى دورانهما فى جميع فصول السنة فيعبد المسلمون ربهم فى جميع الأوقات من حارة و باردة ومعتدلة .

وقد حث الشارع على الانتفاع بالحساب الشمسى بنحو قوله : « الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ » وقوله : « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ » .

(ماخلق الله ذلك إلا بالحق) أى ماخلق الله الشمس ذات ضياء تفيض أشعتها على كواكبها التابعة لها فتنبعث الحرارة فى جميع الأحياء ، وبها يبصر الناس جميع المبصرات ويقومون بأمور معايشهم وسائر شئونهم ، وما خلق القمر ذا نور مستمد من الشمس تنتفع به السيارة فى سيرهم ، وقدره منازل يعرف بها الناس السنين والشهور، ما خلق ذلك إلا مقترنا بالحق الذى تقتضيه الحكمة والمنفعة لحياة الخلق ونظام معايشهم فلا عبث فيه ولاخلل ، فكيف يعقل بعد هذا أن يخلق هذا الإنسان ويعلمه البيان ويعطيه من كمال الاستعداد مالم يعط غيره ، ثم يتركه بعد ذلك سدى يموت ويفنى ولايعود ويبعث ، لتجزى كل نفس بما كسبت فيجزى المتقون بصالح أعمالهم ، والمشركون والظالمون المجرمون بكفرهم وجرائمهم كما قال تعالى : « أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ . مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ » .

(نفصل الآيات لقوم يعلمون) أى نبين الدلائل من حِكَم الخلق على رسولنا مفصلة متنوعة من كونية وعقلية لقوم يعلمون دلالة الأدلة ويميزون بين الحق والباطل باستعمال عقولهم فى فهم هذه الآيات فيجزمون بأن من خلق النيّرين على هذا النظام البديع لايمكن أن يخلق الإنسان سدى .

(إن فى اختلاف الليل والنهار) أى فى حدوثهما وتعاقبهما بمجىء كل منهما خِلْفَة للآخر وفى طولها وقصرهما على حسب اختلاف مواقع الأرض من الشمس ، وما لها من نظام دقيق على حسب حركة الشمس اليوميـة والسنوية ، وفى طبيعة كل منهما وما يصلح فيه من نوم وسكون وعمل دنيوى ودينى .

(وما خلق الله فى السموات والأرض) من أحوال الجماد والنبات والحيوان ، ويدخل فى ذلك أحوال الرعود والبروق والسحاب والأمطار ، وأحوال البحار من مدّ وجزر ، وأحوال المعادن العجيبة فى تركيبها وأوضاعها المختلفة إلى نحو ذلك مما ذكر فى علم المواليد الثلاثة .

(لآيات لقوم يتقون) أى لدلائل عظيمة على وجود الصانع ووحدانيته وحكمته فى الإبداع والإتقان وفى تشريع العقائد والأحكام ـ لقوم يتقون مخالفة سننه تعالى فى التكوين وسننه فى التشريع، فلله سنن فى حفظ الصحة مَن خالفها مرض ، وله سنن فى تزكية الأنفس ، فمن خالفها وأفسدها بارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن جُوزِىَ على ذلك فى الآخرة أشد الجزاء .

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ، وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠).

شرح المفردات

قال فى المصباح : رجوته : أمّلته أو أردته قال تعالى : « لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا » أى لا يريدونه ، ويستعمل بمعنى الخوف لأن الراجى يخاف ألا يدرك ما يترجاه ، وقيل

الرجاء مجرد التوقع الذى يشمل ما يسرّ وما يسوء ، واللقاء : الاستقبال والمواجهة ، والاطمئنان : سكون النفس إلى الشيء وارتياحها به ، والمأوى : الملجأ الذى يأوى إليه المتعب أو الخائف أو المحتاج من مكان آمن أو إنسان نافع ، وقد أطلق على الجنة فى ثلاث آيات ، وعلى النار فى بضع عشرة آية ، والدعوى : الدعاء ؛ وهو للناس النداء والطلب المعتاد بينهم فى دائرة الأسباب المسخرة لهم ، ولله هو دعاؤه وسؤاله والرغبة فيما عنده مع الشعور بالحاجة إليه والضراعة له فيما لا يقدر عليه أحد من خلقه من دفع ضر أو جلب نفع ، سبحانك : أى تنزيها لك وتقديسا ، والتحية : التكرمة بقولهم : حياك الله ، أى أطال عمرك ، والسلام : السلامة من كل مكروه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأدلة على وجوده تعالى من خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وأثبت بذلك البعث والجزاء على الأعمال يوم العرض والحساب - قفى على هذا بذكر حال من كفر به وأعرض عن البينات الدالة عليه ، وحال المؤمنين الذين عملوا الصالحات موقنين بلقاء ربهم - ثم ذكر جزاء كلّ من الفريقين .

الإيضاح

(إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها) أى إن الذين لا يتوقعون لقاءنا فى الآخرة للحساب والجزاء على الأعمال لإنكارهم للبعث ، ورضوا بالحياة الدنيا بدلا من الآخرة فقصروا كل همهم من الحياة على الحصول على أغراضهم منها ، وسكنت نفوسهم إلى شهواتها ولذاتها .

(والذين هم عن آياتنا غافلون) فلا يتدبرون منها ما نزل على رسولنا وما حوته من عبر ومواعظ ومعاد وحكم ، ولا يتفكرون فى صحائف الكون وما فيها من حكمته وسننه فى الخلق ، وبهذا شاركوا الفريق الأول فى الشغل بالدنيا عن الآخرة ، ومن ثم لم يستعدوا لحسابنا وما يعقبه من نعيم مقيم ، وعذاب أليم .

(أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) أى أولئك الذين سلف ذكرهم مأواهم فى الآخرة النار جزاء ما اجترحوا من السيئات طوال حياتهم ، فهم قد دنسوا أنفسهم بشرور الوثنية وظلمات الشهوات الحيوانية فلم يعد لنور الحق والخير مكان فيها ، ومن ثم لايجدون ملجأ بعد هول الحساب إلا جهنم دار العذاب .

و بعد أن أبان جزاء الفريق الأول كان من الواضح أن تستشرف نفس القارئ والسامع إلى جزاء الفريق الثانى فقال :

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم) أى إن الذين آمنوا بما يجب الإيمان به ولم يغفلوا عن الآيات التى غفل عنها الغافلون ورجوا لقاء ربهم وخافوا حسابه وعقابه ، يهديهم ربهم بسبب إيمانهم صراطه المستقيم فى كل مايعملون و ينتهى ذلك بهم إلى دخول الجنة التى أعدها لعباده المخبتين .

وفى هذا إيماء إلى أن الإيمان والعمل الصالح هما سبب الهداية والفوز برفيع الدرجات والوصول إلى أقصى الغايات .

(تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم) أى تجرى من تحت غرفهم فى الجنات ومن تحت الأشجار .

(دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) أى إنهم يبدءون كل دعاء وثناء عليه تعالى يناجونه به بهذه الكلمة (سبحانك اللهم) أى تنزيها وتقديسا لك يا الله ، وأن تحيتهم فيها كلمة (سلام) الدالة على السلامة من كل مكروه ، وهى تحية المؤمنين فى الدنيا .

وهذه التحية تكون منه عز وجل حين لقائه كما قال فى سورة الأحزاب : « تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ » ومن الملائكة لهم عند دخول الجنة كما قال : « وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ » وتكون منهم بعضهم لبعض كما قال : « لاَيَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلاَّ سَلاَماً » .

وإن آخر كل حال من أحوالهم من دعاء يناجون به ربهم ، ومطلب يطلبونه من إحسانه وكرمه (الحمد لله رب العالمين) كما أنه أول ثناء عليه حين دخولها كما قال « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ » كما أنه آخر كلام الملائكة كما قال : « وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ، وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

فعلى كل مؤمن أن يستعد لها بتزكية نفسه وترقية روحه ، ويعلم أنه لن يكون أهلاً لها إلا بالعمل ومجاهدة النفس والهوى ، لا بالتوسلات للأولياء والتمنى لشفاعتهم كما قال تعالى : «لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا » .

وروى عن أبىّ بن كعب مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم « إن أهل الجنة إذا قالوا — سبحانك اللهم ، أتاهم مايشتهون » وكذلك روى مثله عن بعض التابعين — فالكلمة إذاً علامة بين أهل الجنة وخدمهم على إحضار الطعام وغيره فإذا أكلوا حمدوا الله تعالى .

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) .

شرح المفردات

تعجيل الشيء: تقديمه على أوانه المقدر له أو الموعود به، والاستعجال به: طلب التعجيل له، والعجلة من غرائز الإنسان كما قال تعالى « خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ » فاستعجاله بالخير لشدة حرصه على منافعه وقلة صبره عنها، واستعجاله بالضر لا يكون من دأبه بل بسبب عارض كالغضب والجهل والعناد والاستهزاء والتعجيز، أو للنجاة مما هو شر منه، وقضاء الأجل انتهاؤه، ونذر: نترك، والطغيان: مجاوزة الحد فى الشر من كفر وظلم وعدوان، والعمه: التردد والتحير فى الأمر أو فى الشر، ومرّ: أى مضى فى طريقته التى كان عليها من الكفر بربه.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر تعجب القوم من تخصيص محمد بالنبوة، وأزال هذا التعجب بقوله « أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ » ثم ذكر دلائل التوحيد والبعث والجزاء — ذكر هنا جوابا عن شبهة كانوا يقولونها أبدا وهى: اللهم إن كان ما يقول محمد حقا فى ادعاء الرسالة فأمطر علينا حجارة من السماء.

وخلاصة الجواب أنه لا مصلحة لهم فى إيصال الشر إليهم إذ لو أوصله إليهم لماتوا وهلكوا، ولا صلاح فى إماتتهم، فربما آمنوا بعد ذلك أو خرج من صلبهم من يكون مؤمنا.

الإيضاح

(ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم) أى ولو يعجل الله للناس إجابة دعائهم فى الشر وفيما عليهم فيه مضرة فى نفس أو مال كاستعجال مشركى مكة رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالعذاب الذى أنذرهم نزوله بهم كما حكى الله عنهم من نحو قوله « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ » وقوله « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ، وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ

وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً » وقوله « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

كاستعجالهم بالخير الذى يطلبونه بدعاء الله أو بعلاج الأسباب التى يظنون أنها قد تأتى به قبل أوانه لقضى أجلهم قبل وقته الطبيعى كما هلك الذين كذبوا الرسل واستعجلوهم بالعذاب من قبلهم .

ولكن الله أرحم بهم من أنفسهم ، وقد بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالهداية الدائمة ، وقضى بأن يؤمن به قومه العرب ويحملوا دينهم إلى العجم ، وأنه يعاقب المعاندين من قومه فى الدنيا بما فيه تأديب لهم كما بين ذلك بقوله «قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ » ويؤخر عذاب سائر الكافرين إلى يوم القيامة ، ولم يقض بإهلاكهم واستئصالهم ، بل يذرهم إلى نهاية آجالهم كما قال :

(فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون) أى فنترك الذين لا يرجون لقاءنا ممن تقدم ذكرهم فيما هم فيه من طغيان فى الكفر والتكذيب ، يترددون فيه متحيرين لا يهتدون سبيلا للخروج منه ، ولا نعجل لهم العذاب فى الدنيا بالاستئصال حتى يأتى أمر الله فى جماعتهم بنصر رسوله صلى الله عليه وسلم عليهم ، وفى أفرادهم بقتل بعضهم وموت بعض ، ومأواهم النار وبئس القرار ، إلا من تاب وآمن منهم ؛

وقد يكون المراد : ولو يعجل الله للناس الشر الذى يستعجلونه بما يقترفونه من ظلم وفساد فى الأرض لأهلكهم كما جاء فى قوله «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ » ومن هذا دعاؤهم على أنفسهم حين اليأس ، ودعاء بعضهم على بعض حين الغضب كما قال « وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ » أى وما دعاء الكافرين ربهم أو بنعمه فيما يخالف شرعه وسننه فى خلقه إلا فى ضياع لا يستجيبه الله لهم لحلمه عليهم ورحمته بهم .

(وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما) أى إن الإنسان إذا أصابه من الضر ما يشعر فيه بشدة ألم أو خطر على نفسه كغرق ومسغبة وداء عضال دعانا ملحّا فى كشفه عند اضطجاعه لجنبه أو قعوده فى كسر بيته أو قيامه على قدميه حائرا فى أمره ، ولا ينسى حاجته إلى رحمة ربه ما دام يشعر بمس الضر ويعلم من نفسه العجز عن النجاة منه ، وقدم من هذه الحالات الثلاث ما يكون الإنسان أشد عجزا وشعوره بالحاجة إلى ربه أقوى ثم التى تليها ثم التى تليها .

(فلما كشفنا عنه ضره مرّ كأن لم يدعنا إلى ضرٍّ مسه) أى فلما كشفنا عنه ضره الذى دعانا إليه حال شعوره بعجزه عن كشفه بنفسه أو بغيره من الأسباب — مرّ ومضى فى طريقه التى كان عليها من الغفلة عن ربه والكفر به كأن الحال لم تتغير ولم يدعنا إلى شىء ولم نكشف عنه ضرا .

(كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) أى مثل هذا الطريق من معرفة الله والإخلاص فى دعائه وحده فى الشدة ، ونسيانه والكفر به بعد كشفها ، زين للمشركين من طغاة مكة وغيرهم ما كانوا يعملون من أعمال الشرك ، حتى بلغ من عنادهم للرسول صلى الله عليه وسلم واستهزائهم بما أنذرهم من عذاب أن استعجلوه به فقالوا اللهم ربنا أمطر علينا حجارة من السماء .

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤) .

شرح المفردات

القرون : الأمم ، واحدها قرن ، وهم القوم المقترنون فى زمن واحد ، وجاء فى الحديث الشريف « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم » ، والخلائف : واحدها خليفة ، وهو من يخلف غيره فى شىء ، ولننظر : لنشاهد ونرى .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه فى الآيات السالفة أنهم كانوا يتعجلون العذاب ، وذكر أنه لاصلاح لهم فى إجابة دعائهم، ثم ذكر أنهم كاذبون فى هذا الطلب إذ لو نزل بهم الضر جأروا وتضرعوا إلى الله فى كشفه و إزالته .

بين هنا ما يجرى مجرى التهديد ، وهو أنه تعالى قد ينزل بهم عذاب الاستئصال كما حدث للأمم قبلهم حتى يكون ذلك رادعا لهم وزاجرا عن هذا الطلب .

الايضاح

(ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا) الخطاب إلى قوم النبى صلى الله عليه وسلم وأهل وطنه مكة ، أى لقد أهلكنا كثيرا من الأمم قبلكم بسبب ظلمهم. والآية بمعنى قوله «وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا» وهلاك الله للأمم بالظلم ضربان :

(١) ضرب بعذاب الاستئصال للأقوام الذين بعث الله تعالى فيهم رسلا لهدايتهم بالإيمان والعمل الصالح كقوم نوح وعاد وثمود ، فعاندوا الرسل فأنذروهم عاقبة الجحود والعناد بعد مجيئهم بالآيات الدالة على صدقهم .

(٢) ضرب بعذاب هو مقتضى سنته تعالى فى نظم الاجتماع البشرى ، فالظلم مثلا سبب لفساد العمران وضعف الأمم ، ولاستيلاء القوية على الضعيفة كما قال «وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ» ـ وهو إما ظلم الأفراد لأنفسهم بالفسوق والإسراف فى الشهوات المضعفة للأبدان المفسدة للأخلاق و إما ظلم الحكام الذى يفسد بأس الأمة وَيَهِنُ من قوتها .

(وجاءتهم رسلهم بالبينات) أى أهلكناهم لما ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلهم بالبينات الدالة على صدقهم .

(وما كانوا ليؤمنوا) أى وما كان من شأنهم ولا من مقتضى استعدادهم أن يؤمنوا لأنهم قد مرنوا على الكفر وصار ديدنهم حب الشهوات واللذات من الجاه والرياسة والظلم والفسق والفجور .

(كذلك نجزى القوم المجرمين) أى ومثل هذا العذاب الشديد وهو الاستئصال نجزيه لكل قوم مجرمين .

وفى هذا وعيد شديد لأهل مكة على تكذيبهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

(ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم) أى ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعد أولئك الأقوام بما آتيناكم فى هذا الدين من أسباب الملك والحكم إذ فى شريعتكم ما به سعادة الأمة فى دينها ودنياها .

وفى الآية بشارة لهذه الأمة بأنها ستخلفهم فى الأرض إذا آمنت به واتبعت النور الذى أنزل معه كما قال « وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » ولقد صدق الله وعده فملكهم ملك الأكاسرة والقياصرة والفراعنة وكثير من الأمم غيرها .

(لننظر كيف تعملون) أى لنرى ماذا تعملون فى خلافتكم فنجازيكم به بمقتضى سنتنا فيمن قبلكم ، كما قال « لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً » وجاء فى الأثر « إن الدنيا خضرة حلوة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون » وقال قتادة : صدق الله ربنا ما جعلنا خلفاء إلا لينظر إلى أعمالنا ، فأروا الله من أعمالكم خيرا بالليل أو النهار .

وفى ذلك إيماء إلى أن هذه الخلافة منوطة بالأعمال حتى لا يغتروا بما سينالونه ويظنوا أنه باق لهم وأنهم يتفلتون من سننه تعالى فى الظالمين .

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي

إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَىَّ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (١٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧) .

المعنى الجملى

بعد أن بدأ الله السورة بذكر الكتاب الحكيم وإنكار المشركين الوحى على رجل منهم ثم أقام الحجة على الوحى والتوحيد والبعث بخلق العالم علويه وسفليه ، وبطبيعة الإنسان وتاريخه وغرائزه ــ أعاد هنا الكلام فى شأن الكتاب نفسه وتفنيد ما اقترحه المشركون على الرسول صلى الله عليه وسلم بشأنه ، وحجته البالغة عليهم فى كونه وحياً من عند الله تعالى .

الإيضاح

(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدّله) أى وإذا تتلى على هؤلاء المشركين آيات الكتاب الذى أنزل إليك حال كونها بارزات فى أعلى أسلوب من البيان دالات على الحق ساطعات الحجة والبرهان ، قالوا لمن يتلوها عليهم، وهو الرسول الله صلى الله عليه وسلم: ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، أى ائت بكتاب آخر نقرؤه ليس فيه ما لا نؤمن به من البعث والجزاء على الأعمال ، ولا ما نكرهه من ذم آلهتنا والوعيد على عبادتها ، أو بدّله بأن تجعل بدل الآية المشتملة على الوعيد آية أخرى ، ولم يكن مقصدهم من هذا إلا أن يختبروا حاله بمطالبته بالإتيان بقرآن غيره فى جملة ما بلغهم من سوره فى أسلوبها ونظمها ، أو بالتصرف فيه بالتغيير والتبديل لما يكرهونه منه من تحقير آلهتهم وتكفير آبائهم

حتى إذا فعل هذا أو ذاك كانت دعواه أنه كلام الله أوحاه إليه دعوى لا يعول عليها، وكان قصارى أمره أنه امتاز عنهم بنوع من البيان خفيت عليهم أسباب معرفته، ولم يكن بوحى من الله كما يزعمه .

(قل ما يكون لى أن أبدّله من تلقاء نفسى) أى قل لهم أيها الرسول إنه ليس من شأنى ولا مما تجيزه لى رسالتى أن أبدله من تلقاء نفسى ومحض رأيى وخالص اجتهادى .

(إن اتبع إلا ما يوحى إلىّ) أى ما أتبع فيه إلا تبليغ ما يوحى إلىّ والاهتداء بهديه ، فإن بدّل الله منه شيئا بنسخه بلغت عنه ما أراد ، وما علىّ إلا البلاغ .

ثم علل ما سبق بقوله :

(إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) أى إنى أخاف إن فعلت أىّ عصيان ، عذاب يوم عظيم الشأن، ألا وهو يوم القيامة، فكيف بى إذا عصيته بتبديل كلامه اتباعا لأهوائكم .

ثم لقنه الله الجواب عن الشق الأول وهو التغيير لأهميته بقوله :

(قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به) يقال دريته ودريت به ، أى علمته ، أى لو شاء الله ألا أتلو عليكم هذا القرآن ما تلوته عليكم ، فإنما أتلوه بأمره وتنفيذ مشيئته ، ولو شاء ألا يعلمكم به بإرسالى إليكم لما أرسلنى ولما أدراكم به ، ولكنه شاء أن يمنّ عليكم بهذا العلم النافع لتهتدوا به وتكونوا بهدايته خلائف فى الأرض وهذا لن يكون بكتاب آخر كما قال « وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » فهو قد أنزله عالما بأن فيه كل ما يحتاج إليه البشر من الهداية وأسباب السعادة .

(فقد لبثت فيكم عمراً من قبله) أى فقد مكثت بين ظهرانيكم عمرا طويلا من قبله وهو أربعون سنة لم أتل عليكم سورة من مثله ولا آية تشبه آياته لا فى العلم والهداية ولا فى البيان والبراعة .

(أفلا تعقلون) أى أفلا تعقلون أن من عاش أربعين سنة لم يقرأ كتابا ولم يلقن من أحد علما ولم يتقلد دينا ولم يمارس أساليب البيان وأفانين الكلام من شعر ولا نثر ولاخطابة ولا فخر ولا علم ولا حكمة لا يمكنه أن يأتى بمثل هذا القرآن المعجز لكم ولجميع الدارسين لكتب الأديان ، فكيف تقترحون علىّ أن آتى بقرآن غيره .

وقد كان أكثر أنبياء بنى إسرائيل قبل نبوتهم على شىء من العلم كما قال تعالى فى موسى « وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْمًا » وقال فى يحيى « وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا » .

(فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته) أى إن شر أنواع الظلم والإجرام فى البشر شيئان :

(١) افتراء الكذب على الله ، وهو ما اقترحوه عليه بجحودهم .

(٢) التكذيب بآيات الله وهو ما اجترحوه من السيئات .

وقد نعيت عليكم الثانى منهما ، فكيف أرضى لنفسى الأول وهو شر منه ، وإنّ أهم أغراض رسالتى الإصلاح ، ولأجله أحتمل المشاق ، وأقبل فى سبيله كل إرهاق ، فلا فائدة لى فى هذا الإجرام .

(إنه لايفلح المجرمون) أى لا يفوز الذين اجترموا الكفر فى الدنيا إذا لقوا ربهم ولا ينالون الفلاح .

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هٰؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِى السَّمٰوَاتِ وَلاَ فِى الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) .

المعنى الجملى

بعد أن بين فى الآيات السالفة أنهم طلبوا منه أحد أمرين : إما الإتيان بقرآن غير هذا أو تبديله ؛ لأن فيه نبذا لآلهتهم وطعنا فيها وتسفيها لآرائهم فى عبادتها ـ نعى عليهم هنا عبادة الأصنام و بين لهم حقارة شأنها إذ لا تستطيع نفعا ولا ضرا ، فكيف يليق بالعاقل أن يعبدها من دون الله ، ويجعل لها الشفاعة عنده وليس لديهم برهان على ما يدّعون ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

الإيضاح

(ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم) أى ويعبدون ما لا يملك لهم ضرا ولا نفعا من الأصنام وغيرها حال كونهم متجاوزين ما يجب من عبادته تعالى وحده ، فهم يعبدونه ويعبدون معه غيره كما قال تعالى « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ » .

وفى الآية إيماء إلى أن سبب عبادتها وضلالهم فيما يدعون هو اعتقادهم فيها القدرة على الضر والنفع ، فرد عليهم خطأهم بأنه وحده هو القادر على نفع من يعبده وضرّ من يشرك بعبادته غيره فى الدنيا والآخرة .

وقد دل تاريخ البشر فى كل طور من أطواره على أن كل ما عبده من دون الله من صنم أو وثن فإنما عبده لاعتقاده فيه القدرة على النفع والضر بسلطان له فوق الأسباب المعروفة كعبادته للأوثان المتخذة من الحجارة أو الخشب والأصنام المصنوعة من المعادن والحجارة أو غير المصنوعة كاللات ، وهى صخرة كانت بالطائف يلتّ عليها السويق ثم عُظِّمت حتى عُبِدَتْ ، أو الأشجار كالعُزّى معبودة قريش .

(ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) أى ويقولون فى سبب عبادتهم لهم مع اعتقادهم أنهم لا يملكون الضر والنفع بأنفسهم إيمانهم بأن الرب الخالق هو الله تعالى ،

وهؤلاء شفعاء عنده ونحن إنما نعبدهم ونعظم هيا كلهم ونطيبها بالعطر ونقدم لهم النذور ونهلّ لهم عند ذبح القرابين بذكر أسمائهم وبدعائهم والاستغاثة بهم ، لأنهم يشفعون لنا عند الله ويقربوننا إليه زلفى ويدفعون بجاههم عنا البلاء ويعطوننا ما نطلب من النعماء .

وقد روى عكرمة أن النضر بن الحارث قال : إذا كان يوم القيامة شفعت لى اللات والعزّى .

فأساس عقيدة الشرك أن جميع ما يطلب من الله لا بد أن يكون بوساطة المقربين عنده ، إذ هم لا يمكنهم التقرب من الله والحظوة عنده بأنفسهم لأنها مدنسة بالمعاصى ـ أما الموحدون فيعتقدون أنه يجب على العاصى أن يتوجه إلى الله وحده تائبا إليه طالبا مغفرته ورحمته .

(قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض) أى قل لهم أيها الرسول مبينا لهم كذبهم ومنكرا عليهم افتراءهم على ربهم: أتخبرون الله بشىء لا يعلمه من أمر هؤلاء الشفعاء فى السموات من ملائكته وفى الأرض من خواص خلقه ، ولو كان له شفعاء يشفعون لكم عنده لكان أعلم بهم منكم إذ لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، فإذا هؤلاء لا وجود لهم عنده ، وأنكم قد اتخذتم ذلك قياسا على ما ترونه من الوساطة عند الملوك الجاهلين بأمور رعيتهم والعاجزين عن تنفيذ مشيئتهم فيهم ، بدون وساطة الوزراء وذوى المكانة فيهم .

وبهذا ثبت بطلان الشرك فى الألوهية وهو عبادة غير الله مهما يكن المعبود ، وبطلان الشرك فى الربوبية بادعاء وساطة المعبود فى الخلق والتدبير ، أو الشفاعة عند الله إذ ليس لمعبود بذاته ولا بتأثير خاص له عند خالقه يحمله على نفع من شاء ولا ضر من شاء أو كشف ضر عنه كما يعتقده عباد الأولياء من البشر إلى اليوم ، فكل ذلك للرب وحده ولا يعلم إلا بوحيه ، فادعاء ذلك لغيره كذب لا مستند له .

وفى هذا حجة أيما حجة على زوار الأضرحة والقبور الذين يقولون : إن هؤلاء

الأولياء أحياء عند ربهم كالشهداء، فهم يضرون وينفعون لا كالأصنام ، وقد جهلوا أن الله يقول للنصارى إن المسيح لا يملك لهم ضرا ولا نفعا بعبادتهم له مع ما آتاه من المعجزات ، وأظن أن الأمر لا يبلغ بهم أن يجعلوا السيد البدوى وسيدنا الحسين والسيدة زينب أفضل عند الله ولا أقرب منه ، وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبر الناس بأنه لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا « قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ » .

(سبحانه وتعالى عما يشركون) أى تنزه ربنا وعلا علوا كبيرا عما يشركون به من الشفعاء والوسطاء وما يفترونه عليه من أن لأحد من خلقه وساطة عنده وشفاعة لديه تقرب إليه زلفى، ففى هذا تحقير لمقام الربوبية والألوهية وتشبيه الرب بعبيده من الملوك الجاهلين .

وفى هذا إيمـاء إلى أن شئون الرب وسائر ما فى عالم الغيب لا يعلم إلا بخبر الوحى ، ومن ذلك اتخاذ الشفعاء والوسطاء عنده ، فيكون كفرا صراحا .

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) .

المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة على فساد عبادة الأصنام ، وبين سبب هذه العبادة ـــ ذكر هنا بيان ما كان عليه الناس من الوحدة فى الدين وما صاروا إليه من الاختلاف والفرقة فيه .

الإيضاح

(وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا) أى إن الناس جميعا كانوا أمة واحدة على فطرة الإسـلام والتوحيد ثم اختلفوا فى الأديان ، وإلى ذلك الإشارة

بقوله عليه السلام « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

فبعث الله فيهم النبيين والمرسلين لهدايتهم و إزالة الاختلاف بكتاب الله ووحيه، ثم اختلفوا فى الكتاب أيضا بغيا بينهم واتباعا لأهوائهم .

(ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون) أى ولولا كلمة حق سبقت من ربك فى جعل الجزاء العام فى الآخرة لعجله لهم فى الدنيا بإهلاك المبطلين المعتدين .

وفى الآية وعيد شديد على اختلاف الناس المؤدى إلى العدوان والشقاق ، ولاسيما الاختلاف فى الكتاب الذى أنزل لإزالة الشقاق .

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٢٠) .

المعنى الجملى

بعد أن حكى سبحانه عن المشركين إنكارهم للوحى إلى بشر مثلهم ورد عليهم مقالتهم بالحجج التى تثبت بطلان شركهم و إنكارهم للبعث ، ثم حكى عنهم مطالبة الرسول صلى الله عليه وسلم بالإتيان بقرآن غير هذا الذى يدل فى نظمه وأسلوبه وعلومه وهدايته على أنه وحى من كلام الله ــ حكى عنهم فى هذه الآية الاحتجاج على إنكار نبوته بعدم إنزال آية كونية غير القرآن مع ما فيه من الآيات العلمية والعقلية الدالة على النبوة والرسالة ثم رد على ذلك .

الإيضاح

(ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه) أى قالوا مرارا وتكرارا ولا يزالون يقولون : هلا أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم آية كونية كآيات الأنبياء الذين يحدثنا

عنهم كنوح وشعيب وهود ، وقد جاء هذا الاقتراح هنا مجملا وأجاب عنه جوابا مجملا لأن كلا منهما سبق مفصلا فى سور أخرى كقوله فى سورة الفرقان « وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا » وحكى عنهم أنهم طالبوه بواحدة من بضع آيات وعلقوا إيمانهم على إجابة مطلبهم فقال : « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ » .

فلقنه الله الرد عليهم بقوله : « وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ » أى وما صرفنا من إرسال الآيات التى اقترحوها إلا تكذيب الأولين كعاد وثمود بها ، وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك واستوجبوا عذاب الاستئصال كما مضت بذلك سنتنا ، وقد قضينا ألا نستأصلهم لأنهم أمة خاتم النبيين الباقية وأنه هو رحمة للعالمين، وفيهم من يؤمن أو يولد له من يؤمن، وقد آتى الله رسوله صلى الله عليه وسلم آيات علمية وكونية ولكنه لم يجعلها حجة على رسالته ولا أمره بالتحدى بها ، بل كانت لضرورات استدعتها كاستجابة بعض أدعيته صلى الله عليه وسلم كشفاء المرضى وإشباع العدد الكثير من الطعام القليل فى غزوة بدر وغزوة تبوك ، وتسخير الله السحاب لإسقاء المسلمين ، وتثبيت أقدامهم التى كانت تسيخ فى الرمل ببدر .

وعلى الجملة فحجة النبى صلى الله عليه وسلم على نبوته هى كتابه المعجز بهدايته وعلومه.

روى الشيخان والترمذى عن أبى هريرة مرفوعا « ما من نبى إلا وقد أعطى

من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » .

(قل إنما الغيب لله) أى إن ما اقترحتموه وزعمتم أنه من لوازم النبوة وعلقتم إيمانكم بنزوله من الغيب الذى لا يعلمه إلا الله ولا علم لى به ، فإن كان قدّر إنزال آية علىّ فهو يعلم وقتها وينزلها فيه ، ولا أعلم إلا ما أوحاه إلىّ .

(فانتظروا إنى معكم من المنتظرين) لما يفعله الله بى وبكم ، فقد اجترأتم على جحود الآيات واقتراح غيرها ، والآية بمعنى قوله : « قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ » وقد جاء تفسير ما ينتظره وينتظرونه منه فى قوله فى آخر هذه السورة « فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ، قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ » .

وفى الآية إنذار بما سيحل بهم من العذاب بخذلانهم ونصر الرسل عليهم فى الدنيا وما وراءها من عذاب الآخرة .

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ، إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى

أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) .

شرح المفردات

أصل الذوق : إدراك الطعم بالفم ، ويستعمل فى إدراك الأشياء المعنوية كالرحمة والنعمة والعذاب والنقمة ، والمكر : التدبير الخفىّ الذى يفضى بالممكور به إلى ما لايتوقعه ، ومكره تعالى تدبيره الذى يخفى على الناس بإقامة سننه وإتمام حكمه فى نظام العالم ، وكله عدل وحق ، فإن ساء الناس سموه شرا ، وإن كان جزاء عدلا ، والرسل هنا : الكرام الكاتبون من الملائكة ، والتسيير : جعل الشيء أو الشخص يسير بتسخيره تعالى أو إعطائه مايسير عليه من دابة أو سفينة ، والفلك : السفينة أو السفن واحد وجمع ، والطيب : من كل شيء مايوافق الغرض والمنفعة ، يقال رزق طيب ونفس طيبة وشجرة طيبة ، والعاصف : الذى يعصف الأشياء ويكسرها ، يقال ريح عاصف وعاصفة ، وأحيط به هلك كما يحيط العدو بعدوه فيسُدّ عليه سبل النجاة ، والبغى : مازاد على القصد والاعتدال ، من بغى الجرح إذا زاد حتى ترامى إلى الفساد .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه أن القوم طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم آية أخرى سوى القرآن ، وذكر جوابا عن هذا بأنه مما لا يملك ذلك لأن هذا من الغيب الذى استأثر الله بعلمه ، قفى على ذلك هنا بجواب آخر ، وهو أن أولئك المشركين لايقنعون بالآيات إذا رأوها بأعينهم ، بل يكابرون حسهم ولا يؤمنون ، إذ من عاداتهم اللجاج والعناد ، فكثيرا ما جاءتهم الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله فى أفعاله ثم هم يمكرون فيها ولا تزيدهم إلا ضلالا .

الإيضاح

(و إذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر فى آياتنا) أى و إذا رزقنا المشركين بالله فرجا بعد كرب ورخاء بعد شدة أصابتهم ، بادروا إلى المكر وأسرعوا بالمفاجأة به فى مقام الشكر ، فإذا كانت الرحمة مطرا أحيا الأرض وأنبت الزرع ودرّ به اللبن بعد جدب وقحط أهلك الحرث والنسل ، نسبوا ذلك إلى الكواكب أو الأصنام ، و إذا كانت نجاة من هلكة وأعوزهم معرفة عللها وأسبابها عللوها بالمصادفات ، و إذا كان سببها دعاء نبيّ أنكروا إكرام الله له ، وتأييده بها كما فعل فرعون وقومه عقب آيات موسى وكما فعل مشركو مكة إثر القحط الذى أصابهم بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رفع عنهم بدعائه عليه الصلاة والسلام فما زادهم ذلك إلا كفرا وجحودا . روى البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن قريشا لما استعصوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كسنى سيدنا يوسف فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام والميتة من الجهد وحتى جعل أحدهم يرى مابينه و بين السماء كهيئة الدخان من الجوع ، فأنزل الله تعالى « فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ، يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ » فجاء أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد إنك جئت تأمرنا بصلة الرحم ، و إن قومك قد هلكوا فادع الله لهم ، فدعا لهم فكشف الله عنهم العذاب ومُطِروا فعادوا إلى حالهم ومكرهم الأول يطعنون فى آيات الله و يعادون رسوله صلى الله عليه وسلم و يكذبونه .

(قل الله أسرع مكراً) أى قل لهم : إن الله أسرع منكم مكرا ، فهو قد دبّر عقابكم وهو موقعه بكم قبل أن تدبروا كيف تعملون فى إطفاء نور الإسلام ، وقدسبق فى تدبيره لأمور العالم وتقديره للجزاء على الأعمال قبل وقوعها أن يعاقبكم على مكركم فى الدنيا قبل الآخرة ، وهو عليم بما تفعلون لاتخفى عليه خافية .

(إن رسلنا يكتبون ماتمكرون) أى إن الحفظة من الملائكة الذين وكلهم الله بإحصاء أعمال الناس وكتبها للحساب عليها فى الآخرة يكتبون ماتمكرون به .

وفى ذلك تنبيه إلى أن مادبروا ليس بخاف عليه تعالى، و إلى أن انتقامه واقع بهم لامحالة.

وعلينا أن نعتقد بأن الملائكة تكتب الأعمال كتابة غيبية لم يكلفنا الله تعالى بمعرفة صفتها ، و إنما كلفنا أن نؤمن بأن له نظاما حكيما فى إحصاء أعمالنا لأجل أن نراقبه فيها فنلتزم الحق والعدل والخير ونجتنب أضدادها .

ثم ضرب مثلا من أبلغ أمثال القرآن ليظهر حالهم و يتضح به ما هم عليه فقال :

(هو الذى يسيركم فى البر والبحر) أى إنه تعالى هو الذى وهبكم القدرة على السير فى البر وسخر لكم الإبل والدواب ، وفى البحر بما سخر لكم من السفن التى تجرى فى البحر والقطر التجارية والسيارات ، وفى الهواء بالطائرات التى تسير فى الجوّ .

(حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين) أى حتى إذا كنتم فى الفلك التى سخرناها لكم وجرت بمن فيها بسبب ريح مواتية لهم فى جهة سيرهم ، وفرحوا بماهم فيه من راحة وانتعاش وتمتع بمنظره الجميل وهوائه العليل ـ جاءت ريح شديدة قوية فاضطرب البحر وتموج سطحه كله فتلقاهم من جميع الجوانب والنواحى بتأثير الريح ، واعتقدوا أنهم هالكون لامحالة بإحاطة الموج بهم ، فبينما يهبط الريح العاصف بهم فى لجج البحر حتى كأنهم سقطوا فى هاوية إذا به يثب بهم إلى أعلى كأنهم فى قمة الجبل الشاهق ـ فإذا ما نزلت بهم نذر العذاب وتقطعت بهم الأسباب دعوا الله مخلصين له الدين ليكشف عنهم ما حل بهم ولا يتوجهون معه إلى ولىّ ولا شفيع ممن كانوا يتوسلون بهم إليه حال الرخاء . وقد صمموا العزيمة على طاعته وقالوا ربنا لئن

أنجيتنا من هذه التهلكة لنكونن من جماعة الشاكرين ، ولا نتوجه فى تفريج كروبنا وقضاء حاجتنا إلى وثن ولا صنم ، ولا إلى ولىّ ولا نبىّ .

وفى الآية إيماء إلى أن الناس جبلوا على الرجوع إلى الله حين الشدائد ، ولكن من لا يحصى عددهم من المسلمين فى هذا العصر لا يدعون حين أشد الأوقات حرجا إلا الميتين من الأولياء والصالحين ، كالسيد البدوى والرفاعى والدسوقى والمتبولى وأبى سريع وغيرهم ويتأول ذلك لهم بعض العلماء ويسمونه توسلا أو نحو ذلك .

قال السيد حسن صديق الهندى فى تفسيره «فتح الرحمن» : فياعجبا لما حدث فى الإسلام من طوائف يعتقدون فى الأموات ، فإذا عرضت لهم فى البحر مثل هذه الحالة دعوا الأموات ولم يخلصوا لله كما فعله المشركون كما تواتر ذلك إلينا تواترا يحصل به القطع . فانظر هداك الله ما فعلت هذه الاعتقادات الشيطانية وأين وصل بها أهلها وإلى أين رمى بهم الشيطان ؟ وكيف اقتادهم وتسلط عليهم حتى انقادوا له انقيادا ما كان يطمع فى مثله ولا فى بعضه من عباد الأصنام « إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» اهـ .

وقال الألوسى فى تفسيره : وأنت خبير بأن الناس اليوم إذا اعتراهم أمر خطير وخطب جسيم فى برّ أو بحر دعوا من لا يضر ولا ينفع ، ولا يرى ولا يسمع ، فمنهم من يستغيث بأحد الأئمة . ومنهم من يضرع إلى شيخ من مشايخ الأمة ، ولا ترى فيهم أحدا يخص مولاه بتضرعه ودعاه ، ولا يكاد يمرّ له ببال أنه لو دعا الله تعالى وحده ينجو من هاتيك الأهوال ، فبالله تعالى عليك قل لى : أى الفريقين أهدى سبيلا ، وأى الداعيين أقوم قيلا ، وإلى الله المشتكى من زمان عصفت فيه ريح الجهالة ، وتلاطمت أمواج الضلالة ، واتخذت الاستعانة بغير الله للنجاة ذريعة ، وخرقت سفينة الشريعة اهـ .

(فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق) أى فلما نجاهم مما نزل بهم من الشدة والكربة فاجئوا الناس فى الأرض التى يعيشون فيها بالبغى عليهم والظلم لهم مع الإمعان فى ذلك والإصرار عليه .

وفى قوله : بغير الحق - تأكيد للواقع وتذكير بقبحه وسوء حال أهله ، أولبيان أنه بغير حق عندهم أيضا بأن يكون ظلما ظاهرا لايخفى على أحد قبحه كما جاء فى قوله: « وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ » .

وبعد أن حكى المثل خاطب البغاة فى أى مكان كانوا وفى أى زمان وجدوا منبها واعظا فقال :

(يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا) أى يأيها الغافلون عن أنفسكم أما كفاكم بغيا على المستضعفين منكم اغترارا بقوتكم وكبريائكم ، إنما بغيكم فى الحقيقة على أنفسكم لأن عاقبة وباله عائدة إليكم ، وإنما تتمتعون ببغيكم متاع الحياة الدنيا الزائلة وهى تنقضى سراعا ، والعقاب باق ، وأقله توبيخ الضمير والوجدان .

(ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون) أى ثم إنكم ترجعون إلينا بعد هذا التمتع القليل فننبئكم بما كنتم تعملون من البغى والظلم والتمتع بالباطل ونجازيكم به .

وفى الآية إيماء إلى أن البغى مجزىٌّ عليه فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فلقوله : إنما بغيكم على أنفسكم ، ولما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والبخارى « مامن ذنب يعجل الله لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع مايدخر له فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم » ، والذى رواه أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث هن رواجع على أهلها : المكر والنكث والبغى ، ثم تلا : (يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم) - (ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله) - (ومن نكث فإنما ينكث على نفسه) » .

وأما فى الآخرة فكفى دلالة على ذلك ما أفادته الآية من التهديد والوعيد .

والخلاصة — إن البغى وهو أشنع أنواع الظلم يرجع على صاحبه - لما يولد من العداوة والبغضاء بين الأفراد ويوقد نيران الفتن والثورات فى الشعوب ، انظر إلى من يبغى على مثله تجده قد خلق له عدوا أو أعداء ممن يبغى عليهم .

ولا شك أن وجود الأعداء ضرب من العقوبة فهم يقتصون لأنفسهم منه بكل الوسائل التى يقدرون عليها - وإن هم لم يفعلوا ذلك فإنه يرى فى أعينهم من أنواع

الحنق والغضب ما لا يخفى عليه فيتأجج قلبه حسرة وندامة على ما فعل ، ويود أن لو لم يكن قد خلق لنفسه هذه الحزازات والضغائن المتغلغلة فى النفوس .

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) .

المعنى الجملى

لما كان سبب بغى الناس فى هذه الدنيا هو إفراطهم فى حبها والتمتع بزينتها ـ ضرب لذلك مثلا يصرف العاقل عن الغرور بها ويرشده إلى الاعتدال فى طلبها والكف عن التوسل فى الحصول على لذاتها بالبغى والظلم والفساد فى الأرض ـ فشبه حال الدنيا وقد أقبلت بنعيمها وزينتها وافتتن الناس بها بعد أن تمكنوا من الاستمتاع بها ، ثم أسرع ذلك النعيم فى التقضى وانصرم غبّ إقباله واغترار الناس به ، بحال ما على الأرض من أنواع النبات يسوق الله إليها المطر فيلتفّ بعضها على بعض وتصبح بهجة للناظرين ثم لا تلبث أن تنزل بها فجأة جائحة تستأصلها وتجعلها حطاما كأن لم تكن بالأمس .

الإيضاح

(إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام) أى إنما صفة الحياة فى صورتها ومآلها كصفة ماء نزل من السماء

فأنبتت به الأرض أزواجا شتى من النبات تشابكت واختلط بعضها ببعض على كثرتها واختلاف ألوانها وأنواعها من أصناف شتى تكفى الناس فى أقواتهم ومراعى أنعامهم.

(حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها) أى حتى كانت الأرض بها فى خضرتها السندسية وألوان أزهارها المختلفة كعروس حليت بالذهب والجواهر والحلل المختلفة الألوان ذات البهاء والبهجة ، وازينت بها فى ليلة زفافها ، وظن أهلها أنهم قادرون على التمتع بثمراتها متمكنون من ادخار غلاتها .

(أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس) أى نزل بها فى تلك الحال أمرنا المقدر لهلاكها فجاءتها جائحة وضرب زرعها بعاهة كجراد أو صقيع شديد أو ريح سموم ليلا وهم نائمون ، أو نهارا وهم غافلون فجعلناها كالأرض المحصودة التى قطعت واستؤصل زرعها ولم يبق منه شىء ، أو كأنها لم تنبت ولم تكن زروعها نضرة بالأمس .

وجاء هذا المعنى فى قوله : « أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ . أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ » .

(كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) أى كهذا المثل الواضح الذى يمثل حال الدنيا وغرور الناس بها مع سرعة زوالها وتعلق الآمال بها ـ نفصل الآيات الدالة على حقيقة التوحيد وأصول التشريع والآداب والمواعظ وتهذيب الأخلاق . وكل ما فيه صلاح للناس فى معاشهم ومعادهم لمن يستعمل عقله ويزن أعماله بموازين الحكمة .

وقد غفل الناس عن الهداية بهذه الآيات وأمثالها . وقد اهتدى بها الشعب العربى فخرج من خرافة شركه إلى نور التوحيد والعلم والحضارة . ثم اهتدى بدعوته الملايين من الشعوب الأخرى فشاركوه فى السعادة والنعيم ، ولم يكن المسلمين الآن حظ منها إلا التمتع بحسن ترتيلها فى بعض المواسم والمآتم ولم يخطر لهم ببال أن يتدبروا معانيها وأن يهتدوا بهديها ـ وهم لو فعلوا ذلك لعلموا أن كل ما يشكو منه الناس من

العداوات القومية والحروب الدولية والرذائل النفسية . والشقاء الذى عمت جرثومته البشر ، إنما سببه التنافس فى متاع هـــذه الحياة ، ولو التزموا القصد والاعتدال فى مطالبهم منها وصرفوا همتهم فى قوة الدولة وإعلاء كلمة الله والاستعداد للآخرة لسعدوا فى الدارين ونالوا رضا الله فى الحالين .

وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥) لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) .

شرح المفردات

دار السلام : هى الجنة ، والسلام : السلامة من جميع الشوائب والنقائص والأكدار ، ورهقه : غشيه وغلب عليه حتى غطاه وحجبه ، وقوله : « وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا » أى لاتكلفنى ما يشق على ويعسر ، والقتر : الدخان الساطع من الشواء والحطب ، وكذا كل غبرة فيها سواد ، والعاصم : المانع .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه غرور المشركين الجاهلين بمتاع الدنيا وضرب لهم الأمثال على ذلك ـ قفى على هـذا بالترغيب فى الآخرة ووصف حال المحسنين والمسيئين فيها فقال :

الإيضاح

(والله يدعو إلى دار السلام) أى ذلك الإيثار لمتاع الدنيا والغرور بها هو مايدعو إليه الشيطان ، فيوقع متبعيه فى جهنم دار النكال والوبال ، والله يدعو عباده إلى دار السلام ، إذ يأمرهم بما يوصل إليها .

(ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) أى ويهدى من يشاء إلى الطريق الموصل إليها بلا تعويق ، لأنه طريق مستقيم لاعوج فيه وهو الإسلام : عقائده وفضائله وأحكامه .

وأصل الهداية الدلالة بلطف ، وهى إما بالتشريع ببيانه وتفصيله للناس عامة ، وإما بالتوفيق للسير على سنن الدين والاستقامة عليه، وهى خاصة بالمستعدين للعمل به ، ومن ثم قيدها بالمشيئة .

(للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) أى للذين أحسنوا أعمالهم فى الدنيا المثوبة الحسنى : أى التى تزيد فى الحسن على إحسانهم وهى مضاعفتها بعشرة أمثالها أو أكثر وجاء هذا المعنى فى قوله : « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءوا بِمَا عَمِلُوا ويَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » أى ولهم زيادة على هذه الحسنى فوق مايستحقون على أعمالهم بعد مضاعفتها.

وقد ورد من طرق عدة أن هذه الزيادة هى النظر إلى وجه الله الكريم وذلك هو أعلى مراتب الكمال الروحى الذى لايصل إليه إلا المحسنون العارفون فى الآخرة .

(ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة) أى ولا يغشى وجوههم شىء مما يغشى الكفرة من الغبرة التى فيها سواد ولا أثر هوان ولا كسوف بال .

(أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) أى أولئك الذين هذه صفتهم هم أصحاب الجنة وسكانها وهم ساكنون فيها أبدا فهى لاتبيد فيخافوا زوال نعيمهم ولا هم بمخرجين منها فتنغص عليهم لذاتهم .

(والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها) أى والذين عملوا السيئات فى الدنيا فعصوا الله فيها وكفروا به وبرسوله صلى الله عليه وسلم ، جزاء سيئة من عملهم السىء الذى عملوه فى الدنيا بمثلها من عقاب الله فى الآخرة جزاء وفاقا ، ولايزادون على مايستحقونه من العذاب شيئا .

(وترهقهم ذلة) أى تغشاهم ذلة الفضيحة وكسوف الخزى بما يظهره حسابهم من شرك وظلم وزور وفجور .

(مالهم من الله من عاصم) أى مالهم من الله من مانع يمنعه إذا هو عاقبهم أو يحول بينه وبينهم ، كالذين اتخذوهم فى الدنيا شركاء وزعموهم شفعاء ، فذلك هو اليوم الذى تتقطع فيه الأسباب التى كانت تفيد فى الدنيا « يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » .

(كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما) أى كأنما ألبست وجوههم قطعا من أديم الليل حال كونه حالكا مظلما لابصيص فيه من نور القمر الطالع ولا النجم الثاقب فتشقها قطعة بعد قطعة فصارت ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض .

(أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) أى أولئك الذين لهم تلك الصفات هم أصحاب النار هم فيها خالدون لايبرحونها لأنه ليس لهم مأوى سواها ، وقد جاء فى معنى هذه الآيات فى وصف الفريقين قوله : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ، أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ » وقوله : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ » .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ، فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨)

فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)

شرح المفردات

الحشر: الجمع من كل جانب إلى موقف واحد، ومكانكم: كلمة يراد بها التهديد والوعيد، أى الزموا مكانكم، وزيلنا: فرقنا وميزنا، وتبلو: تختبر، وأسلفت: قدمت، وضل: ضاع وذهب.

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه وتعالى جزاء الذين كسبوا السيئات وما يكون لهم من الذلة والهوان ــ قفى على ذلك بذكر اليوم الذى يحصل فيه هذا الجزاء.

الإيضاح

(ويوم نحشرهم جميعا) أى واذكر أيها الرسول الكريم لكلا الفريقين الذين أحسنوا الحسنى، والذين كسبوا السيئات ــ يوم نحشرهم جميعا بلا تخلف أحد فى موقف الحساب.

(ثم نقول للذين أشركوا: مكانكم أنتم وشركاؤكم) أى ثم نقول لمن أشرك منهم بعد طول مكث لايكلمون بشىء ــ الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم لاتبرحوه حتى تنظروا مايفعل بكم ويفصل بينكم فيما كان من سبب عبادتكم إياهم والحجة التى يدلى بها كل فريق منكم.

وفى هذا وعيد شديد وتوبيخ لهم على رءوس الأشهاد وتقريع بكون هذا معظم سيئاتهم.

(فزيلنا بينهم) أى ففرقنا بين الشركاء ومن أشركوهم مع الله سبحانه وتعالى،

وميزنا بعضهم من بعض ، كما يميز بين الخصوم عند الحساب ، ويراد بهذا التفريق تقطيع ما كان بينهم فى الدنيا من صلات وروابط وخيبة ما كان للمشركين فى الشركاء من آمال .

(وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون) أى وقال شركاؤهم : ما كنتم تخصوننا بالعبادة ، وإنما كنتم تعبدون أهواءكم وشياطينكم التى كانت تقويكم ، وتتخذون تماثيلنا هياكل لمنافعكم وأغراضكم ، والمعبود الحق هو الذى يعبد لأنه صاحب السلطان الأعلى على الخلق وبيده النفع والضر .

(فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم) أى فكفى الله شهيدا وحكما بيننا وبينكم ، فهو العليم بحالنا وحالكم .

(إن كنا عن عبادتكم لغافلين) أى إننا كنا فى غفلة عن عبادتكم لا ننظر إليها ولا نفكر فيها .

(هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت) أى فى موقف الحساب تختبر كل نفس من عابدة ومعبودة ، ومؤمنة وجاحدة ، ما قدمت فى حياتها الدنيا من عمل ، وما كان لكسبها فى صفاتها من أثر ، خير أو شر ، بما ترى من الجزاء عليه فهو ثمرة طبيعية له لا شأن فيه لولىّ أو شفيع ولا معبود ولا شريك .

(وردوا إلى الله مولاهم الحق) أى ارجعوا إلى الله الذى هو مولاهم الحق ، دون ما اتخذوا من دونه بالباطل من الأولياء والشفعاء ، والأنداد والشركاء .

وقد جاء هذا المعنى فى آيات كثيرة كقوله « إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ » وقوله « إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ » وقوله « وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ » .

(وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى وضاع عنهم ما كانوا يفترون عليه من الشفعاء والأولياء ، فلم يجدوا أحدا ينصرهم ولا ينقذهم من هول ذلك الموقف كما قال : « يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » وقد تكرر هذا المعنى فى آيات

كثيرة ، منها ما جاء مجملا ، ومنها ما جاء مفصلا ، فمنها مايسأل الله فيه العابدين ، ومنها ما يسأل فيه المعبودين ، ومنها ما عين فيه اسم الملائكة والجن والشياطين .

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ، فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) .

المعنى الجملي

بعد أن بين جنايات المشركين على أنفسهم و بين فساد معتقداتهم وما سيلقونه من الجزاء على مافعلوا ــ قفى على ذلك بإقامة الحجج على المشركين فى إثبات التوحيد والبعث ، ثم أردفه بإثبات النبوة والرسالة والقرآن :

الإيضاح

(قل من يرزقكم من السماء والأرض) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المعاندين من أهل مكة : من يرزقكم من السماء بما ينزله عليكم من الأمطار ، ومن الأرض بما ينبته من شتى النباتات من نجم وشجر تأكلون منه وتأكل أنعامكم .

(أم من يملك السمع والأبصار) أى قل لهم من يملك ماتتمتعون به من حاستى السمع والبصر ، وأنتم بدونهما لاتدرون شيئا من أمور العالم ، وتكون الأنعام والهوام بل الشجر خيرا منكم باستغنائها عمن يقوم بضرورات معاشها .

وخص هاتين الحاستين بالذكر لأن عليهما مدار الحياة الحيوانية وكمال الحياة الإنسانية إذ بهما تحصيل العلوم الأولية .

وخلاصة ذلك — مَن خلق هذه الحواس ووهبها للناس وحفظها مما يعتريها من الآفات ، ولاشك أن الجواب عن ذلك السؤال لا حاجة إلى الفكر فيه ، فإن هم تأملوا فى ذلك ازدادوا علما وإعجابا بإنعام الله بهما ، وإيمانا بأنه لايقدر غيره على إيجادها .

(ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) أى ومن ذا الذى بيده أمر الموت والحياة فيخرج الحى من الميت والميت من الحى فيما تعرفون من المخلوقات وما لاتعرفون ، فالله هو الذى يخرج النبات من الأرض الميتة بعد إحيائه إياها بماء المطر النازل عليها من السماء كما قال تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ » .

وعلامة الحياة فى النبات النموّ ، وفى الحيوان النمو والإحساس والحركة بالإرادة ، ولم يكونوا يصفون أصول الأحياء بالحياة كالحب والنوى وبيض الحيوان ومنيّه ، ومن ثم مثلوا إخراج الحى من الميت والميت من الحى بخروج النخلة من النواة والطائر من البيضة وعكسهما ، وهو تفسير صحيح عند علماء اللغة ، غير صحيح عند علماء المواليد الثلاثة ، وبه تحصل الدلالة على قدرة الله وحكمته وتدبيره ورحمته لدى المخاطبين .

وإذا كان أرباب الفنون أثبتوا أن فى أصول النبات كالبذور والنوى والبيض والمنىّ حياة ، فهم يثبتون أيضا أن أصول الأحياء فى الأرض كلها خرجت من مادة ميتة ، فقد قالوا إن الأرض كانت كتلة نارية ملتهبة انفصلت من الشمس ثم صارت ماء ، ثم نبتت اليابسة فى الماء ثم تكوّن من الماء النبات والحيوان فى أطوار شتى ، وقالوا أيضا إن الغذاء من الطعام الميت الذى يحرق بالنار ويتولد منه الدم ، ومن هذا الدم يكون البيض والمنى المشتملان على مادة الحياة ، وقالوا أيضا: إن بعض مواد البدن الحية تموت وتخرج منه مع البخار والعرق وغيرهما مما يفرزه البدن ، وتتجدد فيه مواد جديدة تحل محل ما خرج منها وفنى .

والخلاصة — إن علماء المواليد قالوا : الحى لايخرج إلا من حى ، ولكن الحياة الأولى هى من خلق الله الحى بذاته المحيى لغيره .

(ومن يدبر الأمر) أى ومن يلى تدبير أمر الخليقة جميعا بما أودعه فى كل منها من السنن وقدّره من النظام .

(فسيقولون الله) أى فسيجيبون عن هذه الأسئلة الخمسة بلا تعلثم ولا تلكؤ بأنّ فاعل هذا كله هو الله رب العالم كله ومليكه ـ إذ لاجواب غيره وهم لايجحدون ذلك ولا ينكرونه .

(فقل أفلا تتقون) أى فقل لهم أيها الرسول الكريم : أفلا تتقون سخط الله وعقابه لكم بشرككم وعبادتكم لغيره ممن لايملك لكم ضرا ولا نفعا .

(فذلكم الله ربكم الحق) أى فذلكم المتصف بكل تلك الصفات السالفة هو الله المربى لكم بنعمه والمدبر لأموركم ، وهو الحق الثابت بذاته الحى المحيى لغيره المستحق للعبادة دون سواه .

(فماذا بعد الحق إلا الضلال) أى فماذا بعد الرب الحق الثابتة ربوبيته إلا الضلال أى الباطل الضائع المضمحل ، فالذى يفعل تلك الأمور هو الرب الحق ، وعبادته وحده هى الهدى، وما سواها من عبادة الشركاء والوسطاء ضلال ، وكل من يعبد غيره معه فهو مشرك مبطل ضال .

(فأنى تصرفون) أى فكيف تتحولون عن الحق إلى الباطل وعن الهدى إلى الضلال ، مع علمكم بما كان به الله هو الرب الحق ، فما بالكم تقرون بتوحيد الربوبية دون توحيد الألوهية فتتخذون مع الله آلهة أخرى .

(كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا) أى مثل ذلك الذى حقت به كلمة ربك من وحدة الربوبية والألوهية ، وكون الحق ليس بعده لمن تنكب عنه إلا الضلال ـ حقت كلمة ربك : أى وعيده على الذين خرجوا من حظيرة الحق ، وهو توحيد الألوهية والربوبية وهداية الدين الحق .

(أنهم لايؤمنون) أى هى أنهم لايؤمنون بما يدعوهم إليه رسلنا من التوحيد والهدى مهما تكن الآية بينة ، والحجة ظاهرة قوية .

وليس المراد أنه يمنعهم من الإيمان بالقهر ، بل هم يمتنعون منه باختيارهم لفقدهم نور البصيرة واستقلال العقل فلا يتوجهون إلى التمييز بين الحق والباطل ، والهدى والضلال لرسوخهم فى الكفر ، واطمئنانهم به بالتقليد كما قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَيُؤْمِنُونَ ، وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » .

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ ؟ قُلِ اللهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ، أَفَمَنْ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لاَ يَهِدِّى إِلاَّ أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)

المعنى الجملى

هذا ضرب آخر من الحجة أقامه سبحانه دليلا على توحيده و بطلان الإشراك به جاء بطريق السؤال للتوبيخ و إلزام الخصم ، فإن الكلام إذا كان ظاهرا جليا ، ثم ذكر على سبيل الاستفهام ، وتفويض الجواب إلى المسئول يكون أوقع فى النفس وأبلغ فى الدلالة على الغرض .

الإيضاح

(قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده) أى قل لهم أيها الرسول : هل أحد من شركائكم الذين عبدتموهم مع الله أو من دون الله من الأصنام أو الأرواح الحالة فيها كما تزعمون ، أو الكواكب السيارة أو غيرها من الأحياء كالملائكة والجن ، من له هذا التصرف فى الكون ببدء الخلق فى طور ثم إعادته فى طور آخر .

ولما كانوا لا يجيبون عن هذا السؤال كما أجابوا عن الأسئلة الأولى لإنكارهم البعث والمعاد ، لقّنَ الله رسوله الجواب فقال :

(قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده) إذ القادر على بدء الخلق يكون قادرا على إعادته بالأولى ، وهم ينكرون إعادة الأحياء الحيوانية دون الأحياء النباتية ، إذ هم يشاهدون بدء خلق النبات فى الأرض حين ما يصيبها ماء المطر فى فصل الشتاء وموته بجفافها فى فصل الصيف والخريف ، ثم إعادته بمثل ما بدأه مرة بعد أخرى ، ويقرون بأن الله هو الذى يفعل البدء والإعادة ، لأنهم يشاهدون كلا منهما وهم لا يسلمون إلا بما يرون بأعينهم أو يلمسونه بأيديهم قال :

(فأنى تؤفكون) أى فكيف تصرفون من الحق الذى لا محيد عنه ، وهو التوحيد إلى الضلال البيّن ، وهو الإشراك وعبادة الأصنام ، وذلك من دواعى الفطرة وخاصة العقل حين تفكيره فى المصير .

ثم جاء باحتجاج آخر على ما ذكره إلزاما لهم عقب الإلزام الأول ، فسألهم عن شأن من شئون الربوبية المقتضى لاستحقاق الألوهية وتوحيد العبادة الاعتقادية والعملية فقال :

(قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق) أى قل لهم أيها الرسول : هل من أولئك الشركاء من يهدى إلى الحق بوجه من وجوه الهداية التى بها تتم حكمة الخلق . كما يدل على ذلك قوله (رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

والهداية أنواع — هداية الغريزة والفطرة التى أودعها الله فى الإنسان والحيوان، وهداية الحواس من سمع و بصر ونحو ذلك ، وهداية التفكير والاستدلال بوساطة هذه الوسائل ، وهداية الدين ، وهو للنوع البشرى فى جملته بمثابة العقل للأفراد ، وهداية التوفيق الموصل بالفعل إلى الغاية بتوجيه النفس إلى طلب الحق وتسهيل سبله ومنع الصوارف عنه .

ولما كانوا لا يستطيعون أن يدّعوا أن أحدا من أولئك الشركاء يهدى إلى الحق لامن ناحية الخلق ولا من ناحية التشريع ، لقن الله رسوله الجواب فقال :

(قل الله يهدى للحق) أى قل هو الله سبحانه الذى يهدى إلى الحق دون غيره بما نصب من الأدلة والحجج ، وأرسل من الرسل وأنزل من الكتب وهدى إلى النظر والتدبّر وأعطى من الحواس .

(أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدى إلا أن يهدى) قرأ يعقوب وحفص يهدى بكسر الهاء ، وتشديد الدال وأصله يهتدى ، أى أفمن يهدى إلى الحق وهو الله أحق أن يتبع فيما يشرعه ، أم من لا يهدى غيره ولا يهتدى بنفسه إلا أن يهديه غيره وهو الله تعالى إذ لا هادى غيره .

ويدخل فيمن نفى عنهم الهداية ممن اتخذوا شركاء — المسيح عيسى بن مريم وعُزَير والملائكة . وهؤلاء كانوا يهدون إلى الحق بهداية الله ووحيه كما قال تعالى فى سورة الأنبياء « وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا » .

(فما لكم كيف تحكمون ؟) أى أىّ شىء أصابكم وماذا حلّ بكم حتى اتخذتم هؤلاء شركاء وجعلتموهم وسطاء بينكم و بين ربكم الذى لا خالق ولا رازق ولا هادى لكم سواه ، كيف تحكمون بجواز عبادتهم وشفاعتهم عنده بدون إذنه .

وفى هذا تعجيب من حالهم وسوء صنيعهم وقبيح فعلهم .

(وما يتبع أكثرهم إلا ظنا) و بعد أن أقام الحجج على توحيد الربوبية والألوهية، بيّن حال المشركين الاعتقادية ، وهى أن أكثرهم لا يتبعون فى شركهم وعبادتهم

لغير الله ، ولا فى إنكارهم للبعث وتكذيبهم للرسول عليه الصلاة والسلام إلا ضربا من ضروب الظن قد يكون ضعيفا كأن يقيسوا غائبا على شاهد ومجهولا على معروف ويقلدون الآباء اعتقادا منهم أنهم لايكونون على باطل فى اعتقادهم، ولا ضلال فى أعمالهم.

وقليل منهم كان يعلم أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحق والهدى وأن أصنامهم وسائر معبوداتهم لاتضر ولا تنفع ، ولكنهم يجحدون بآيات الله ، ويكذبون رسوله صلى الله عليه وسلم عنادا واستكبارا وخوفا على زعامتهم أن تضيع سدى فيصبحون تابعين بعد أن كانوا متبوعين .

(إن الظن لايغنى من الحق شيئا) الحق هو الثابت الذى لاريب فى ثبوته وتحققه ، أى إن الشك لايقوم مقام اليقين فى شىء ، ولا ينتفع به حيث يحتاج إلى اليقين .

وخلاصة ذلك — إن الظن لايجعل صاحبه غنيّا بعلم اليقين فيما يطلب فيه ذلك كالعقائد الدينية .

(إن الله عليم بما يفعلون) أى إن الله عليم بما كانوا يعملون بمقتضى اعتقاداتهم الظنية والقطعية ، فهو يحاسبهم ويجازيهم على كل عمل منها ، كتكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم مع قيام الأدلة القطعية على صدقه ، واتباعهم للظن كالتقليد باتباع الآباء والأجداد .

وفى الآية إيماء إلى أن أصول الإيمان تبنى على اليقين دون الظن ، فالعلم المفيد للحق هو ما كان قطعيا من كتاب أو سنة، وهو الدين الذى لايجوز للمسلمين التفرق والاختلاف فيه ، وما دونه مما لايفيد إلا الظن فلا يؤخذ به فى الاعتقاد وهو متروك للاجتهاد فى الأعمال ، اجتهاد الأفراد فى الأعمال الشخصية ، واجتهاد أولى الأمر فى القضاء مع سلوك طريق الشورى حتى يتحقق العدل والمساواة فى المصالح العامة .

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ وَلَـكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْـكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ؛ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عزّ اسمه الأدلة على أن القرآن من عنده، وأن محمد صلى الله عليه وسلم عاجز كغيره عن الإتيان بمثله ، ثم أتى بالحجج على بطلان شركهم واتباع أكثرهم لأدنى الظن وأضعفه فى عقائدهم ـ عاد إلى الكلام فى تفنيد رأيهم فى الطعن على القرآن بمقتضى هـذا الظن الضعيف لدى الأكثرين منهم ، والجحود والعناد من الأقلين كالزعماء والمستكبرين .

الإيضاح

(وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله) أى لايصح ولا يعقل أن يفتريه أحد على الله من دونه وينسبه إليه ، إذ لايقدر على ذلك غيره عزّ وجل ، فإن مافيه من علوم عالية ، وحكم سامية ، وتشريع عادل ، وآداب اجتماعية ، وأنباء بالغيوب الماضية والمستقبلة ، وجعل المقصد من كل ذلك هو اتباع الحق واجتناب الضلال ، والوصول بذلك إلى العلم الصحيح ـ ليس فى طوق البشر ولا هو داخل تحت قدرته وفى حيز مكنته ، ولئن سلم أن بشرا فى مكنته ذلك فلن يكون إلا أرقى الحكماء والأنبياء والملائكة ، ومثل هذا لن يفترى على الله شيئا .

ولقد ثبت أن أشد أعداء النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أبو جهل قال : إن محمدا لم يكذب على بشر قط ، أفيكذب الله ؟

(ولكن تصديق الذى بين يديه) أى ولكن كان تصديق الذى تقدمه من الوحى لرسل الله تعالى بالإجمال كنوح و إبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله عليهم بدعوته إلى أصول الدين الحق من الإيمان بالله واليوم الآخر وصالح الأعمال بعد أن نسى بعض هذا بقية أتباعهم وضلوا عن بعض ، ولم يكن محمد النبى الأمى يعلم شيئا من ذلك لولا الوحى عن ربه .

(وتفصيل الكتاب) أى وتفصيل ما كتب وأثبت من الشرائع والأحكام والعبر والمواعظ وشئون الاجتماع .

(لاريب فيه) أى لاينبغى لعاقل أن يرتاب فيه لوضوح برهانه ، لأنه الحق والهدى .

(من رب العالمين) أى من وحيه لا افتراء من عند غيره ولا اختلاقا كما قال : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » .

و بعد أن أبان أنه أجل وأعظم من أن يفترى لعجز الخلق عن الإتيان بمثله ، انتقل إلى حكاية زعم هؤلاء الجاهلين والمعاندين الذين قالوا: إن محمدا صلى الله عليه وسلم قد افتراه وفند مزاعمهم وتعجب من حالهم وشنيع مقالهم وتحداهم أن يأتوا بمثله فقال :

(أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) أى ما كان ينبغى أن تقولوا إن محمدا صلى الله عليه وسلم افتراه من عند نفسه واختلقه ، إذ لو كان الأمر كما تقولون وأنى اختلقته وافتريته ، فأتوا بسورة مثله فى نظمه وأسلوبه وعلمه مفتراة فى موضوعها لاتلتزمون أن تكون حقا فى أخبارها ، فإن لسانى لسانكم ، وكلامى كلامكم ، وأنتم أشد مرانا واعتقادا للنثر والنظم منى ، واطلبوا من يعينكم على ذلك من دون الله ، ولن تستطيعوا أن تفعلوا شيئا ، فإن جميع الخلق عاجزون عن هذا « قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا

الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » إن كنتم صادقين فى زعمكم أنى افتريته .

وإذ قد عجزتم عن ذلك مع شدة تمرسكم ، ولم يوجد فى كلام أولئك الذين نصبت لهم المنابر فى سوق عكاظ، وبهم دارت رحى النظم والنثر، وتقضت أعمارهم فى الإنشاء والإنشاد مثله ـ فهو ليس من كلام البشر ، بل هو من كلام خالق القوى والقُدَر .

ومن البين أنه ما كان لعاقل مثله صلى الله عليه وسلم أن يتحداهم هذا التحدى لو لم يكن موقنا أن الإنس والجن لايستطيعون أن يأتوا بمثل هـذا القرآن فى جملته ولا بسورة مثله ، إذ لو كان هو الذى أنشأه وألفه لمصلحة الناس برأيه لكان عقله وذكاؤه يمنعانه من الجزم بعجز عقلاء الخلق من العوالم الظاهرة والباطنة عن الإتيان بسورة مثل ما أتى هو به .

إذ العاقل الفطن يعلم أن ما يمكنه من الامر قد يمكن غيره ، بل ربما وجد من هو أقدر منه عليه .

والخلاصة — إن محمدا صلى الله عليه وسلم كان على يقين بأنه من عند ربه ، وأنه صلى الله عليه وسلم كغيره لايقدر على الإتيان بمثله .

ثم انتقل من إظهار بطلان ما قالوه فى القرآن بتحدّيه لهم ـ إلى إظهار بطلانه ببيان أن كلامهم ناشئ من عدم علمهم بحقيقة أمره واختبار حاله فقال :

(بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) أى هم سارعوا إلى تكذيبه من غير أن يتدبروا مافيه ويقفوا على ما احتوى عليه من الأدلة والبراهين الدالة على أنه كما وصف آنفا ، ومن قبل أن يعلموا أنه ليس مما يمكن أن يؤتى بمثله .

(ولما يأتهم تأويله) أى ولم يأتهم إلى الآن مايئول إليه ويكون مصداقا له بالفعل ويقع ما أخبر به من الأمور المستقبلة .

وخلاصة ذلك — إنهم على إعجاز القرآن من جهة اللفظ والمعنى والإخبار بالغيب ـ قد أسرعوا فى تكذيبه قبل أن يتدبروا أمره أو ينتظروا وقوع ما أخبر به ـ

وفى تكذيب الشىء قبل علمه المتوقع حصوله ـ شناعة وقصر نظر لاتخفى على عاقل ، وفيه دليل على أنهم مقلدون .

(كذلك كذب الذين من قبلهم) أى مثل هذا التكذيب بلا تدبر ولا تأمل كذب الذين من قبلهم من مشركى الأمم رسلهم بما لم يحيطوا بعلمه قبل أن يأتيهم تأويله من عذاب الله الذى أوعدهم به .

(فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) أى فانظر أيها الرسول الكريم كيف كان عاقبة الظالمين لأنفسهم بتكذيب رسلهم وهو تأويل وعيدهم لهم لتعلم مصير من ظلموا أنفسهم من بعدهم ، وهذه العاقبة هى التى بينها الله فى قوله : « فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »

وقد أنذر الله قوم محمد صلى الله عليه وسلم بمثل مانزل بالأمم قبلهم فى الدنيا بهذه الآية وغيرها من هذه السورة ، كما أنذرهم عذاب الآخرة وكذبه المعاندون المقلدون فى كل ذلك ظنا منهم أنه لايقع .

وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهِ ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ، أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١)

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه فى الآية السالفة أنهم كذبوا بالقرآن قبل أن يأتيهم تأويله وقبل أن يحيطوا بعلمه ـ قفّى على ذلك بذكر حالهم بعد أن يأتيهم التأويل المتوقع ، وبين أنهم حينئذ يكونون فريقين : فريق يؤمن به ، وفريق يستمر على كفره وعناده .

الإيضاح

(ومنهم من يؤمن به) أى ومن هؤلاء المكذبين من يؤمن به حين إتيان تأويله وظهور حقيقته بعد أن سعوا فى معارضته ورازوا قواهم فيها فتضاءلت دونها .

(ومنهم من لا يؤمن به) أى ومنهم من يصر على الكفر ويستمر عليه .

(وربك أعلم بالمفسدين) أى وربك أعلم بمن يفسدون فى الأرض بالشرك والظلم والبغى لفقدهم الاستعداد للإيمان ، وهؤلاء سيعذبهم فى الدنيا ويخزيهم وينصركم عليهم ويجزيهم فى الآخرة لفسادهم وسوء معتقداتهم .

(وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم) أى وإن أصروا على تكذيبك فقل لى عملى ، وهو البلاغ المبين والإنذار والتبشير ، وما أنا بمسيطر ولا جبار ، ولكم عملكم وهو الظلم والفساد الذى تجزون به يوم الحساب كما قال تعالى : « هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ » .

(أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون) أى لا تؤاخذون بعملى ولا أؤاخذ بعملكم ، وهذا كقوله : « قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي، وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ » .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ، أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لاَ يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ، أَفَأَنْتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لاَ يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤)

المعنى الجملى

بعد أن أنبأ الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن من قومه من لا يؤمن به لا حالا ولا استقبالا ، بل يصرون على التكذيب بعد ما جاءتهم البينات ، وكان ذلك من

شأنه صلى الله عليه وسلم أن يثير عجبه ويحمله يطيل الحزن والأسف إن لم يؤمنوا بهذا الحديث ـ ذكر سبب هـذا ، وهو أنهم قوم طبع الله على قلوبهم وفقدوا الاستعداد للإيمان فلا وسيلة له صلى الله عليه وسلم فى إصلاح حالهم ولاقدرة له صلى الله عليه وسلم على هدايتهم .

الإيضاح

(ومنهم من يستمعون إليك) أى ومن المكذبين ناس يصيخون بأسماعهم إذا قرأت القرآن أو بينت ما فيه من أصول الشرائع والأحكام ، ولكنهم لا يسمعون إذ يستمعون ، فهم لايتدبرون القول ولا يتفقهون مايراد منه ، بل جلّ همهم أن يتسمعوا غرابة نظمه وجرس صوته بترتيله ، كمن يستمع إلى الطائر يغرد على غصن الشجرة ليتلذذ بصوته لا ليفهم ما يغرد به ، وقد وصف الله حالهم فى آى أخرى فقال : «مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ. لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ» وقال : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً » .

والآن نرى من المسلمين من يستمع إلى قراءة القرآن من قارئ حسن الصوت للتلذذ بترتيله وتوقيع صوته لا لينتفع بعظاته وعبره ، ولا ليفهم عقائده وأحكامه .

(أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون) أى إن السماع النافع للمستمع هو الذى يعقل به مايسمعه ويفقهه ويعمل به ، ومن فقد هـذا كان كالأصم الذى لايسمع ، وإنك أيها الرسول الكريم لم تؤت القدرة على إسماع الصم الذين فقدوا حاسة السمع حقيقة فكذلك لاتستطيع أن تسمع إسماعا نافعا مَن فى حكمهم وهم الذين لايعقلون مايسمعون ولايفقهون معناه فيهتدوا به وينتفعوا بعظاته .

(ومنهم من ينظر إليك) أى ومنهم من يتجه نظره إليك حين تقرأ القرآن ،

ولكنه لايبصر ماآتاك الله من نور الإيمان والخلق العظيم وأمارات الهدى والتزام الصدق .

(أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لايبصرون) أى إنك أيها الرسول الكريم كما لاتقدر على هداية العُمى بدلائل البصر الحسية ، لاتقدر على هدايتهم بالدلائل العقلية ، ولو كانوا فاقدين لنعمة البصيرة التى تدركها .

وخلاصة ما تقدم — إن هداية الدين كهداية الحس لا تكون إلا للمستعد بهداية العقل ، و إن هداية العقل لاتحصل إلا بتوجيه النفس وصحة القصد، وهؤلاء قد انصرفت نفوسهم عن استعمال عقولهم استعمالا نافعا فى الدلائل البصرية والسمعية لإدراك أى مطلب من المطالب الشريفة التى وراء شهواتهم وتقاليدهم .

(إن الله لايظلم الناس شيئا) يراد بالظلم هنا المعنى الذى تدل عليه اللغة وهو نقص ما تقتضى الخلقة الكاملة وجوده كما فى قوله : « كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا» أى إنه لم يكن من سنن الله تعالى فى خلقه أن ينقصهم شيئا من الأسباب التى يهتدون باستعمالها إلى مافيه خيرهم من إدراكات و إرشاد إلى الحق بإرسال الرسل ونصب الأدلة التى توصلهم إلى سعادتهم فى الدنيا والآخرة .

(ولكن الناس أنفسهم يظلمون) أى إنهم يظلمون أنفسهم وحدها دون غيرها لأن عقاب ظلمهم واقع عليها ، فهم يجنون عليها بكفرهم بما أنعم الله عليهم من هدايات المشاعر والعقل والدين و بعدم استعمالها فيما خلقت لأجله من اتباع الحق فى الاعتقاد والهدى فى الأعمال ، وذلك هو الصراط المستقيم الموصل لسعادة الدارين .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥)

المعنى الجملى

لما وصف الله هؤلاء المشركين بترك التدبر والإصغاء وتكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن قبل أن يأتيهم تأويله - قفى على ذلك بالوعيد بما سيكون لهم من الجزاء على هذا يوم القيامة .

الإيضاح

(ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم) الساعة يضرب بها المثل فى القلة : أى وأنذرهم أيها الرسول يوم يجمعهم الله بالبعث بعد الموت ويسوقهم إلى مواقف الحساب والجزاء ، وكأنهم لم يلبثوا فى الدنيا إلا مدة قليلة ثم تقضت .

وخلاصة ذلك — إن هذه الدنيا التى غرتهم بمتاعها الحقير الزائل قصيرة الأمد ستزول بموتهم ، وسيقدرون يوم القيامة قصرها بساعة من النهار لاتسع لأكثر من التعارف ، والآية بمعنى قوله : « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ، لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ » وقوله : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ » وقوله : « قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ؟ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ، قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

(قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين) أى إن هؤلاء آثروا الحياة القصيرة المنغصة بالأكدار السريعة الزوال على الحياة الأبدية بما فيها من النعيم المقيم ، فلم يستعدوا لها ويعملوا الأعمال الصالحة التى تزكى نفوسهم وتهذب أرواحهم فخسروا السعادة فيها وما كانوا مهتدين فيما اختاروه لأنفسهم من إيثار الخسيس الزائل على النفيس الخالد .

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَـٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢) وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ؟ قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ، وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه وتعالى فى الآية السالفة أن هؤلاء المشركين الذين كذبوا بلقاء الله تعالى قد خسروا وما كانوا مهتدين ، وهذا يتضمن تهديدا ووعيدا بالعذاب الذى سيلقونه فى الدنيا والآخرة ــ قفى على ذلك ببيان أن بعض هذا العذاب ستراه

أيها الرسول الكريم وتقر عينك برؤيته ، و بعض آخر سيكون لهم يوم الجزاء وهو عليم بما فعلوه فيجازيهم به قدر ما يستحقون .

الإيضاح

(و إما نرينك بعض الذى نعدهم) أى و إن أريناك بعض ما نعدهم من العقاب فى الدنيا ، فذاك الذى يستحقونه وهم له أهل،وقد أراه ما نزل بهم من القحط والمجاعة بدعائه صلى الله عليه وسلم عليهم ، ونصره عليهم نصرا مؤزرا فى أول معركة هاجمه بها رؤساؤهم وصناديدهم وهى غزوة بدر فقتلهم وشردهم شر تقتيل وتشريد ، وكذلك فعل بهم صلى الله عليه وسلم فى غيرها من الغزوات حتى فتح عاصمتهم أمّ القرى ودخل الناس فى الدين أفواجا .

(أو نتوفينك فإلينا مرجعهم) أى أو نتوفينك قبل أن نريك ذلك فيهم فمصيرهم بكل حال إلينا وآنئذ سيلقون من الجزاء ما يعلمون به صدق وعيدنا .

(ثم الله شهيد على ما يفعلون) فيجزيهم به على علم وشهادة حق ، وقد جاء بمعنى الآية قوله : « فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ » وقوله . « وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ » .

(ولكل أمة رسول) أى إنه تعالى رحمة بعباده و إزالة للحجة جعل لكل أمة من الأمم الخالية رسولا بعثه فيها وقت الحاجة إليه ليبين لهم ما يجب عليهم من الإيمان به وباليوم الآخر وما ينجيهم من العقاب فى ذلك اليوم وهو العمل الصالح الذى يكون سببا فى سعادتهم فى الدارين .

وفى الآية دليل على أن الله تعالى قد أرسل إلى كل جماعة من الأمم السالفة رسولا وما أهمل أمة قط ، ويدل على ذلك قوله : « وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ » وقوله : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً » وقوله : «رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ » .

(فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) أى فإذ جاء رسولهم و بلّغهم ما يجب عليهم معرفته من أمور دينه ، لم يبق لهم حينئذ عذر فى مخالفته ، فهنالك فى يوم الحساب يقضى الله تعالى بينهم بالعدل ولا يظلمون فى قضائه شيئا مما سيحل بهم من عذاب لايكون ظلما لهم لأنه من قِبَل أنفسهم وهم الذين دنسوها بسيىء الأعمال فاستحقوا على ذلك شديد العقاب .

(و يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) أى و يقول كفار قريش للرسول صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه من المؤمنين مكذبين له صلى الله عليه وسلم فيما أخبرهم به من نزول العذاب بالأعداء والنصرة للأولياء : متى يقع هذا الوعد الذى تعدوننا به إن كنتم صادقين فى قولكم: إن الله تعالى سينتقم لكم منا و ينصركم علينا : أى فى نحو ما جاء فى قوله : « حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَدًا » وقوله : « قُلْ إِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّى أَمَدًا عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا » .

وقد لقن الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم الجواب عن هذا السؤال بقوله :

(قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله) أى قل أيها الرسول لمن يستعجل الوعيد و يقول لك متى هذا الوعد : إنى بشر رسول لا أملك لنفسى فضلا عن غيرى شيئا من التصرف فى الضر فأدفعه عنها، ولاشيئا من النفع فأجلبه لها من غير طريق الأسباب التى يقدر عليها غيرى، وليس منها إنزال العذاب بالكفار المعاندين ، ولا بذل النصر والمعونة للمؤمنين ، لكن ما شاء الله تعالى من ذلك يكون متى شاء ولا شأن لى فيه لأنه خاص بمقام الربوبية دون الرسالة التى من وظيفتها التبليغ لا التكوين .

وقد جاء فى معنى الآية قوله : « قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعاً وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

(لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) أى لكل أمة من الأمم الذين أصروا على تكذيب رسولهم أجل لعذابهم يحل بهم عند حلوله لايتعداهم إلى أمة أخرى ، إذا جاء ذلك الأجل فلا يملك رسولهم من دون الله تعالى أن يقدمه ولا أن يؤخره ساعة عن الزمان المقدر له و إن قلّت .

قال فى فتح البيان : وفى هذا أعظم وازع وأبلغ زاجر لمن صار ديدنه وهجيراه المناداة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو الاستغاثة به عند نزول النوازل التى لايقدر على دفعها إلا الله سبحانه وتعالى ؛ وكذلك من صار يطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم ما لايقدر على تحصيله إلا الله سبحانه وتعالى ؛ فإن هذا مقام رب العالمين الذى خلق الأنبياء والصالحين وجميع المخلوقين ، ورزقهم وأحياهم فكيف يطلب من نبىّ من الأنبياء أو ملَك من الملائكة أو صالح من الصالحين ماهو عاجز عنه غير قادر عليه و يترك الطلب من رب الأرباب القادر على كل شىء الخالق الرازق المعطى المانع .

وحسبك ما فى الآية من موعظة ، فإن هذا سيد ولد آدم وخاتم الرسل يأمره الله بأن يقول لعباده « لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلاَ نَفْعاً » فكيف يملكه لغيره ، وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته ومنزلته لاتبلغ إلى منزلته ؟

فيا عجبا لقوم يعكفون على قبور الأموات الذين صاروا تحت أطباق الثرى ، و يطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه إلا الله عزّ وجل ، كيف لايتعظون لما وقعوا فيه من الشرك ، ولا يتنبهون لما حل بهم من المخالفة لمعنى لا إله إلا الله ، ومدلول « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » .

وأعجب من هذا اطلاع أهل العلم على مايقع من هؤلاء ولا ينكرون عليهم ولا يحولون بينهم و بين الرجوع إلى الجاهلية الأولى ، بل إلى ماهو أشد منها ، فإن أولئك يعترفون بأن الله سبحانه وتعالى هو الخالق الرازق ، المحيى المميت ، الضار النافع و إنما يجعلون أصنامهم شفعاء لهم عند الله ومقربين لهم إليه ، وهؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضر والنفع و ينادونهم تارة على الاستقلال وتارة مع ذى الجلال ، وكفاك من

شر سماعه ، والله ناصر دينه ومطهر شريعته من أوضار الشرك وأدناس الكفر ، وقد توسل الشيطان أخزاه الله تعالى بهذه الذريعة إلى ماتقر به عينه و يثلج به صدره من كفر كثير من هذه الأمة المباركة « وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً » إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ اه .

(قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا) أى قل لهم أيها الرسول أخبرونى عن حالكم وما يمكنكم أن تفعلوه إن أتاكم عذابه الذى تستعجلون به فى وقت مبيتكم بالليل أو وقت اشتغالكم بلهوكم ولعبكم أو بأمور معاشكم بالنهار .

(ماذا يستعجل منه المجرمون) أى أىّ نوع من العذاب يستعجل منه المجرمون الكذابون ؟ أعذاب الدنيا أم عذاب يوم القيامة؟ وأيا ما استعجلوا فهو حماقة وجهالة .

(أثم إذا ماوقع آمنتم به) أى أيستعجل مجرموكم بالعذاب الذين هم أحق بالخوف منه بدل الإيمان الذى يدفعه عنهم ثم إذا وقع بالفعل آمنتم به حين لاينفع الإيمان إذ هو قد صار ضروريا بالمشاهدة والعيان، لاتصديقا للرسول عليه السلام .

(آلآن وقد كنتم به تستعجلون) أى وقيل لكم على سبيل التوبيخ : آلآن آمنتم به اضطرارا ، وقد كنتم به تستعجلون تكذيبا به واستكبارا .

(ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد) أى ثم قيل للذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالرسالة والوعد والوعيد تجرعوا عذاب الله الدائم لكم أبدا بحيث لافناء له ولا زوال .

ثم بين أن هذا العذاب جزاء ما صنعوا فى الدنيا فقال :

(هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ؟) أى لاتجزون إلا بما كنتم تكسبون باختياركم من الكفر والظلم والفساد فى الأرض والعزم على الثبات عليه وعدم التحول عنه ، وليس فى هذا شىء من الظلم لأنه أثر لازم لإفساد النفس بالظلم وعمل المفاسد حتى لم تعد أهلا للكرامة وجوار المولى فى جنة الخلد .

(و يستنبئونك أحق هو؟) أى و يسألونك أيها الرسول أن تنبئهم عن هذا

العذاب الذى تعدهم به فى الدنيا والآخرة أحق هو سيقع ؟ جزاء على ما كنا نكسبه من المعاصى فى الدنيا ، أم هو إرهاب وتخويف فحسب ؟

(قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين) إى بكسر الهمزة وسكون الياء كلمة يجاب بها عن كلام سبق بمعنى نعم ، وأعجزه الأمر : فاته ، أى نعم أقسم لكم بربى إنه لحق واقع ماله من دافع ، وما أنتم بواجدى من يوقع العذاب بكم عاجزا عن إدراككم وإيقاعه بكم .

وخلاصة ذلك — إنه حين ينزل العذاب بكم لستم بفائتيه بهرب أو امتناع بل أنتم فى قبضته وسلطانه ، إذا أراد فعل ذلك بكم فاتقوا الله تعالى فى أنفسكم .

روى أحمد والشيخان عن أنس قال: « بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد إذ دخل رجل على جمل فأناخه فى المسجد ثم عقله ثم قال : أيكم محمد ؟ قلنا هذا الرجل الأبيض المتكئ، فقال : أبن عبدالمطلب؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم قد أجبتك ، فقال إنى أسألك فمشدد عليك فى المسألة فلا تجد علىّ فى نفسك ، قال سل مابدالك ، فقال أسألك بربك ورب من قبلك : آلله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ قال : اللهم نعم ، قال : أنشدك بالله : آلله أمرك أن تصلى الصلوات الخمس فى اليوم والليلة؟ قال: اللهم نعم ، قال : أنشدك بالله :آلله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: اللهم نعم، قال أنشدك بالله ، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا ؟ قال : اللهم نعم ، قال آمنت بما جئت به ، وأنا رسول مَن ورائى من قومى ، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بنى سعد بن بكر » .

وفى رواية أحمد أنه قال أيضا: « آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده ولا نشرك به شيئا وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدون معه ؟ قال: اللهم نعم ، وأنه كان أشعر ذا غديرتين وأن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن صدق ذو العقيصتين يدخل الجنة » .

وذكر أنه خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه فكان أول ماتكلم به أن قال: بئست اللات والعُزّى ، قالوا مَهْ (أى كف عن هذا !) ياضمام ، اتق البرص والجذام،

اتق الجنون ، قال : ويلكم إنهما والله مايضران ولا ينفعان ، إن الله قد بعث إليكم رسولا وأنزل كتابا استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، قد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه ، فوالله ما أمسى فى ذلك اليوم فى حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلما .

ثم ذكر مافى هذا اليوم من الأهوال فقال :

(ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لافتدت به) أى ولو أن لكل نفس كفرت بالله - جميع ما فى الأرض من أنواع الملك وصنوف النعم وأمكنها أن تجعله فداء لها من ذلك العذاب الأليم الذى تعانيه - لافتدت به ولم تدخر منه شيئا .

(وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) إسرار الشيء : إخفاؤه وكتمانه ، وإسرار الحديث : خفض الصوت به ، والندم والندامة : مايجده الإنسان فى نفسه من الألم والحسرة عقب كل فعل يظهر له ضرره ، وقد يجهر به بالكلام كما قال تعالى : « يَاحَسْرَتَا عَلَى مَافَرَّطْتُ » أو يخفيه ويكتمه حين لايجد فائدة من إعلانه أو اتقاء للشماتة أو الإهانة. أى وأسر أولئك الذين ظلموا غمهم وأسفهم على ما فعلوا من الظلم حين معاينة العذاب بأبصارهم؛ إذ برزت لهم نار جهنم وأيقنوا أنهم مواقعوها لامصرف لهم عنها ، فما مثلهم إلا مثل من يقدم للصلب يثقله مانزله به من الخطب الجالل ويغلب عليه الحزن الفادح فيخرسه ولا يستطيع أن ينطق ببنت شفة ويبقى جامدا مبهوتا لاحراك به .

ثم بين أنه لاظلم اليوم .

(وقضى بينهم بالقسط وهم لايظلمون) أى وقضى الله بينهم وبين خصومهم بالحق والعدل ، وخصومهم هم الرسل والمؤمنون بهم ، وكذلك من أضلوهم وظلموهم من المرءوسين والضعفاء الذين كانوا يغرونهم بالكفر ويصدونهم عن الإيمان .

وجاء فى معنى هذه الآية قوله فى سورة سبأ « وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» وقوله : « يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَاقَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا » وقوله : «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَاوَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا » .

ثم أتبع ماتقدم بالدليل على قدرته على إنفاذ حكمه و إنجاز وعده ، وكون الظالمين لايعجزونه ولا يستطيعون منه مهرباً فقال :

(ألا إن لله ما فى السموات والأرض) أى إنه تعالى مالك السموات والأرض وكل من فيهما من العقلاء وغيرهم ، فليس للكافرين به شىء يملكونه فيفتدون به أنفسهم من ذلك العذاب ، بل الأشياء كلها لله الذى إليه عقابهم جزاء ما كسبت أيديهم .

والخلاصة — فليتذكر من نسى ، وليتنبه من غفل، وليعلم من جهل ، أن لله وحده جميع ما فى العوالم العلوية والعوالم الأرضية يتصرف فيها كيف يشاء ، ولا يملك أحد من دونه شيئا من التصرف والفداء ، فى يوم البعث والجزاء .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لايعلمون) أى إن كل ما وعد به على ألسنة رسله حق لاريب فيه ، لأنه وعد المالك القادر على كل شىء ولا يعجزه شىء ولكن أكثر الكفار منكرى البعث والجزاء لايعلمون أمر الآخرة لغفلتهم عنها وقصور أنظارهم عن الوصول إلى ما يكون فيها .

ثم أقام الدليل على قدرته على ذلك فقال :

(هو يحيى ويميت وإليه ترجعون) أى إنه تعالى هو المحيي المميت لايتعذر عليه فعل ما أراد من الإحياء والإماتة ، ثم إليه ترجعون حين يحييكم بعد موتكم ويحشركم إليه للحساب والجزاء بأعمالكم .

يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ، وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)

شرح المفردات

العظة : الوصية بالحق والخير واجتناب الباطل والشر بأساليب الترغيب والترهيب التى يرق لها القلب فتبعث على الفعل أو الترك ، والشفاء : الدواء ، والهدى : بيان الحق المنقذ من الضلال ، ويكون فى الاعتقاد بالحجة والبرهان ، وفى العمل ببيان المصالح والحكم ، والرحمة : الإحسان ، وفضل الله : هو توفيقهم لتزكية أنفسهم بالموعظة والهدى ، ورحمته : هى الثمرة التى نُتجت من ذلك، وبها فضلوا جميع الناس.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأدلة على أسس الدين الثلاثة وهى الوحدانية والرسالة والبعث ــ قفى على ذلك بذكر التشريع العملى وهو القرآن الكريم ، وقد أجمل مقاصد هذا التشريع فى أمور أربعة

الإيضاح

(يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) أى قل لهم أيها الرسول قد جاءكم كتاب جامع لكل ماتحتاجون إليه من المواعظ الحسنة التى تصلح أخلاقكم وأعمالكم ، والشفاء للأمراض الباطنية والهداية الواضحة للصراط المستقيم الذى يوصل إلى سعادة الدنيا والآخرة ، والرحمة الخاصة للمؤمنين من رب العالمين .

والخلاصة ــ إن الآية الكريمة أجملت إصلاح القرآن الكريم لأنفس البشر فى أربعة أمور :

(١) الموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب بذكر مايرق له القلب فيبعثه على الفعل أو الترك .

وقد جاء فى معنى الآية قوله : « وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ

عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ » وقوله : « هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ » .

(٢) الشفاء لما فى القلوب من أدواء الشرك والنفاق وسائر الأمراض التى يشعر من أحبها بضيق الصدر كالشك فى الإيمان والبغى والعدوان وحب الظلم و بغض الحق والخير .

(٣) الهدى إلى طريق الحق واليقين والبعد من الضلال فى الاعتقاد والعمل .

(٤) الرحمة للمؤمنين وهى ما تثمره لهم هداية القرآن وتفيضه على قلوبهم ، ومن آثارها بذل المعروف و إغاثة الملهوف و كفّ الظلم ومنع التعدّى والبغى .

و إجمال ذلك — إن موعظة القرآن وشفاءه لما فى الصدور من أمراض الكفر والنفاق وجميع الرذائل وهداه إلى الحق والفضائل موجهات إلى أمة الدعوة وهم جميع الناس ، والمؤمنون قد اختصوا بما تثمره هذه الصفات الثلاث من الرحمة لأنهم هم الذين ينتفعون بها .

ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ المؤمنين بأنه يحق لهم أن يفرحوا بفضل الله عليهم بنعمة الإيمان و بالرحمة الخاصة بهم الجامعة لكل ما ذكر قبلها من مقاصد الشريعة فقال :

(قل بفضل الله و برحمته فبذلك فليفرحوا) أى قل لهم ليفرحوا بفضل الله و برحمته أى إن كان شىء فى الدنيا يستحق أن يفرح به فهو فضل الله ورحمته .

روى ابن مردويه وأبو الشيخ عن أنس مرفوعا «فضل الله القرآن ، ورحمته أن جعلكم من أهله » .

وعن الحسن والضحاك وقتادة ومجاهد « فضل الله الإيمان ، ورحمته القرآن» .

(هو خير مما يجمعون) أى إن الفرح بهما أفضل وأنفع مما يجمعونه من الذهب والفضة والأنعام والحرث والخيل المسومة وسائر خيرات الدنيا لأنه هو سبب السعادة

فى الدارين . وتلك سبب السعادة فى الدنيا الزائلة فقط . فقد نال المسلمون فى العصور الأولى بسببه الملك الواسع والمال الكثير مع الصلاح والإصلاح مما لم يتسنّ لغيرهم من قبل ولا من بعد ، و بعد أن جعلوا ديدنهم جمع المال ومتاع الدنيا ووجهوا همتهم إليه وتركوا هداية القرآن فى إنفاقه والشكر عليه ذهبت دنياهم من أيديهم إلى أيدى أعدائهم .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ، قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٦٠)

المعنى الجملى

بعد أن أقام سبحانه وتعالى الأدلة العقلية على إثبات الوحى والرسالة ـ قفى على ذلك بذكر فعل من أفعالهم لا ينكرونه ولا يجادلون فى وجوده وهو يثبت صحة وجودها .

ذاك أن التشريع بالتحليل والتحريم هو حق الله تعالى وحده وأن الأصل فى الأرزاق وسائر الأشياء التى ينتفع بها الإباحة ، فتحريم بعض الأشياء وتحليل بعض إما افتراء على الله تعالى يستحق فاعله أشد العقاب عليه ، و إما بأمر الله تعالى بوساطة رسله ، والأول لا تعترفون به فثبت الثانى وهو المدعى .

الإيضاح

(قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا) أى قل لهؤلاء المشركين أخبرونى أيها الجاحدون للوحى والرسالة ـ هذا الذى أفاضه الله عليكم من

فضله وإحسانه من رزق تعيشون به من نبات وحيوان فجعلتم بعضه حراما وبعضه حلالا وقد تقدم تفصيل ذلك فى سورة الأنعام فقال : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا » إلخ وقوله فى سورة المائدة : « مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » .

(قل آللّه أذن لكم أم على الله تفترون) أى قل لهم إن حق التحريم والتحليل لايكون إلا لله ، فهل الله هو الذى أذن لكم بذلك بوحى من عنده ؟ أم أنتم على الله تفترون بزعمكم أنه حرّم ماحرمتم وحلل ماحللتم .

والخلاصة — إنه لامندوحة لكم من الاعتراف بأحد الأمرين ، إما دعوى الإذن من الله لكم بالتحريم والتحليل ، وذلك اعتراف بالوحى ، وأنتم تنكرون وتزعمون أنه محال ، وإما الافتراء على الله وهو الذى يلزمكم إذا أنكرتم الأول .

وبعد أن سجل سبحانه وتعالى عليهم جريمة افتراء الكذب على الله ، قفى عليه بالوعيد مع الإيماء إلى ما يكون من سوء حالهم وشدة عقابهم يوم القيامة فقال :

(وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة) أى أىّ شىء ظنهم فى ذلك اليوم الذى تجزى فيه كل نفس ما عملت ؟ أيظنون أنهم يتركون بلا عقاب على جريمة افتراء الكذب على الله وتعمده فيما هو خاص بربوبيته ونزاع له فيها وشرك به كما قال : « أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ » وقال : « وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ » .

(إن الله لذو فضل على الناس) أى إن الله ذو فضل على الناس فى كل ماخلقه لهم من الرزق ، وكل ما شرع لهم من الدين ، ومن ذلك أن جعل الأصل فيما أنزله إليهم من الرزق الإباحة ، وأن جعل حق التحريم والتحليل له وحده كيلا

يتحكم فيهم أمثالهم من عباده كمن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، وهو سبحانه لم يحرم عليهم إلا ما كان ضارّا بهم ، وحصر محرمات الطعام فى أمور معينة .

(ولكن أكثرهم لايشكرون) ذلك الفضل كما يجب كما قال تعالى : « وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ » ومن ثم تراهم يحرمون مالم يحرمه الله ويكفرون نعمه فيغالون فى الزهد وترك الزينة والطيبات من الرزق ، أو يسرفون فى الأكل والشرب والزينة ابتغاء الشهرة والتكبر على الناس ، مع أن الإسلام يأمر بالاعتدال كما قال تعالى : « لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ » .

أخرج أحمد عن أبى الأحوص عن أبيه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنارثّ الهيئة فقال : « هل لك مال ؟ » قلت : نعم ، قال : «من أى المال ؟ » قلت : من كل المال، من الإبل والرقيق والخيل والغنم . فقال : « إذا آتاك الله مالا فلير أثر نعمته عليك وكرامته » .

وأخرج البخارى والطبرانى عن زهير بن أبى علقمة مرفوعا « إذا آتاك الله مالا فلير عليك فإن الله يحب أن يرى أثره على عبده حسنا ، ولايحب البؤس ولاالتباؤس» .

وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ، وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١)

شرح المفردات

الشأن : الأمر العظيم، وجمعه شئون، تقول العرب :ما شأن فلان ، أى ما حاله ، وأفاض فى الشىء أو من المكان : اندفع فيه بقوة أو بكثرة، وعزب الرجل بإبله يعزب :

أى بعد وغاب فى طلب الكلأ ، والذرة : النملة الصغيرة ، وبها يضرب المثل فى الصغر والخفة، وتطلق على الدقيقة من الغبار الذى يرى فى ضوء الشمس الداخل من الكوى إلى البيوت ، والكتاب : هو اللوح المحفوظ .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه فى سابق الآيات أن فضله على عباده كثير ، وأن الواجب عليهم أن يشكروه بدوام طاعته وترك معصيته ، وأن القليل منهم هم الشاكرون ـ قفى على ذلك بتذكيرهم بإحاطة علمه بشئونهم وأعمالهم ما دق منها وما عظم فى جميع ملكوت السموات والأرض حتى يحاسبوا أنفسهم على تقصيرهم فى ذكره وشكره وعبادته .

الإيضاح

(وما تكون فى شأن) أى وما تكون أيها الرسول الكريم فى أمر من أمورك الهامة ، خاصة كانت أو عامة مما تعالج بها شئون الأمة بدعوتها إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، إنذارا لها وتبشيرا وتعليما وعملا .

(وما تتلو منه من قرآن) أى وما تتلو من أجل ذلك الشأن من قرآن أنزل عليك تعبدا به أو تبليغا له .

وفى التعبير بالشأن وهو الأمر ذو البال دلالة على أن جميع أموره صلى الله عليه وسلم كانت عظيمة حتى ما كان منها من مجرى العادات ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان فيها قدوة صالحة .

وبعد أن خاطب رسوله صلى الله عليه وسلم ـ انتقل إلى خطاب الأمة كلها فى شئونها وأعمالها فقال :

(ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه) أى ولا تعملون

أىّ عمل ، خيرا كان أو شرا ، شكرا كان أو كفرا ، و إن كان كمثقال الذرة ، إلا كنا رقباء عليكم إذ تخوضون فيه فنحفظه عليكم ونجازيكم به .

(وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء) أى وما يبعد عن علمه ولا يخفى عليه أقل شىء يبلغ وزنه ثقل ذرة فى الوجود السفلى والعلوى .

وفى التعبير بالإفاضة دليل على أن ما يفيض الإنسان مهتما به مندفعا فيه ـ جدير بألا يغفل عن مراقبة ربه فيه واطلاعه عليه ، وكذلك فى التعبير بيعزب الدال على الخفاء والبعد دليل على أن ما شأنه أن يغيب و يبعد عنا من أعمالنا لا يغيب عن علمه تعالى ، وقدم ذكر الأرض لأن الكلام مع أهلها .

ثم أكد سبحانه ما سبق و بين إحاطة علمه بكل شىء فقال :

(ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) أى ولا شىء أصغر من الذرة مما لا تبصرونه من دقائق الكون وخفاياه ، ولا أكبر من ذلك و إن عظم مقداره كعرشه تعالى ، إلا وهو معلوم له ومحصى عنده فى كتاب عظيم الشأن وهو الكتاب الذى كتب فيه مقادير الموجودات كلها إكمالا للنظام و بيانا لضبط جميع الأعمال .

وفى معنى الآية قوله : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ . وَمَا لَا تُبْصِرُونَ » .

وفى ذلك إشارة إلى أن فى الوجود أشياء لا تدركها الأبصار . وقد أثبت العلم الحديث بوساطة الآلات التى تكبر الأشياء أضعافا مضاعفة (المكروسكوبات) أن هناك أشياء لا يمكن رؤيتها إلا إذا كبرت عن حقيقتها آلاف المرات كالجراثيم (المكروبات) ولم تكن تخطر على البال فى عصر التنزيل ، وقد ظهرت للناس الآن فهى من روائع الإعجاز العظيمة الدالة على أنه من كلام العليم الخبير .

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)

شرح المفردات

الأولياء : جمع ولىّ من الوَلْى ،وهو القرب ، يقال تباعد بعد وَلْى : أى بعدقُرْب، وأولياء الله هم المؤمنون المتقون ، والبشرى : هى الخبر السار الذى تنبسط به بشرة الوجه فتتهلل وتبرق أساريره .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه لعباده سعة علمه ، ومراقبته لعباده ، وإحصاء أعمالهم وجزاءهم عليها ، وذكرهم بما يجب عليهم من شكره على تفضله عليهم ـ ذكر هنا حال الشاكرين المتقين الذين لهم حسن الجزاء يوم القيامة .

الإيضاح

(ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون) أى إن أولياء الله الذين يتولونه بإخلاص العبادة له وحده والتوكل عليه ولايتخذون له أندادا يحبونهم كحبه ، ولا يتخذون من دونه وليا ولاشفيعا يقربهم إليه زلفى ـ لاخوف عليهم فى الآخرة مما يخاف منه الكفار والفساق والظالمون من أهوال الموقف وعذاب الآخرة كما قال تعالى : « لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ » ولا هم يحزنون من لحوق مكروه أو ذهاب محبوب ، ولا يعتريهم ذلك فيها لأن مقصدهم نيل رضوان الله المستتبع للكرامة والزلفى ، ولا ريب فى حصول ذلك ولا خوف من فواته بموجب الوعد الإلهى .

وكذلك فى الدنيا لايخافون مما يخاف منه غيرهم من الكفار وضعفاء الإيمان وعبيد الدنيا من مكروه يتوقع كما قال تعالى : «فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

(الذين آمنوا وكانوا يتقون) التقوى — هى اتقاء كل ما لايرضى الله من ترك واجب وفعل محرم ، واتقاء مخالفة سنن الله تعالى فى خلقه من أسباب الصحة والقوة والنصر والعزة وسيادة الأمة ، أى أولياء الله الذين جمعوا بين الإيمان الصحيح بالله وملائكته وكتبه ، وملكة التقوى له عز وجل وما تقتضيه من عمل .

(لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) أى لهم البشرى فى الحياة الدنيا بالنصر وحسن العاقبة فى كل أمر ــ وباستخلافهم فى الأرض ما أقاموا شرع الله وسننه ونصروا دينه وأعلوا كلمته ، وبإلهام الحق والخير كما ورد من حديث ابن مسعود مرفوعا عند الترمذى والنسائى : « إن للشيطان لَمّة بابن آدم وللملك لَمّة ؛ فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ؛ وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، فليحمد الله تعالى ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان » . وفى الآخرة بما أشارت إليه الآية الكريمة : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ » .

(لاتبديل لكلمات الله) أى لاتغيير ولا خلف فى مواعيده تعالى ، ومن جملتها بشارة المؤمنين المتقين بجنات النعيم والخير العميم .

(ذلك هو الفوز العظيم) أى ذلك الذى ذكر من البشرى بسعادة الدارين هو الفوز الذى ليس بعده فوز ، لأنه ثمرة الإيمان الحق والتقوى فى حقوق الله وحقوق الخلق .

وَلاَ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ، إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥) أَلاَ إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِى الأَرْضِ ، وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٦٦) هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧)

شرح المفردات

العزة : الغلبة والقوة ، والخرص : الحزر والتقدير للشىء الذى لايجرى على قياس من وزن أو كيل أو زرع كخرص الثمر على الشجر والحب فى الزرع ، و يستعمل بمعنى الكذب أيضا لأنه يغلب فيه الحزر والتخمين ، والمبصر : ذو الإبصار ، تقول العرب : أظلم الليل وأبصر النهار وأضاء .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم صفة أوليائه وما بشرهم به ووعدهم فى الدنيا والآخرة ، وفى هذا إيماء إلى الوعد بنصره ونصر من آمن به من أوليائه وأنصار دينه على ضعفهم وفقرهم ، وكان أعداؤهم يغترون بقوتهم فى مكة بكثرتهم ، وكانوا لغرورهم بها يكذبون بوعد الله ، وكان ذلك مما يحزنه كما قال: « قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ » .

فقفى على ذلك بتسليته له صلى الله عليه وسلم عما يلقاه من أذى أعدائه ، وتبشيره بالنصر والعزة والوعيد لأعدائه .

الإيضاح

(ولا يحزنك قولهم) أى لاتحزن لقولهم ولا تبال بما يتفوهون به فى شأنك مما لاخير فيه .

(إن العزة لله جميعا) أى لأن الغلبة والقهر لله تعالى لايملك أحد من دونه شيئا منها ، فهو يهبها لمن يشاء ويحرمها من يشاء وليست للكثرة دائما كما يدعون : « كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ » وقد وعد الله بها رسله والذين آمنوا بهم واتبعوهم من أوليائه كما قال : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » وقال : « وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ » .

(هو السميع العليم) أى هو السميع لما يقولون من تكذيب بالحق وادعاء للشرك فيكافئهم على ذلك ، وهو العليم بما يفعلون من إيذاء وكيد ، فهومذلهم ومحبط أعمالهم.

ثم أقام الدليل على كون العزة لله جميعا وكون الجزاء بيده فقال :

(ألا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض) أى ألا إن لله كل من فى السموات والأرض عبيدا مملوكين له ، لا مالك لشىء من ذلك سواه ، فكيف يكون إلها معبودا ما يعبده هؤلاء المشركون ، من الأوثان والأصنام ، والعبادة للمالك دون المملوك وللرب دون المربوب .

ثم بين أنه لا شريك له أبدا

(ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء) أى إن هؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله تعالى بدعائهم فى الشدائد واستغاثتهم فى النوازل والتقرب إليهم بالقرابين والنذور ـ لايتبعون شركاء له فى الحقيقة يدبرون أمور العباد ويكشفون الضر عنهم ، إذ لاشركاء له .

(إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون) أى مايتبعون فى الحقيقة فيما يقولون إلا الظن فى دعواهم أنهم أولياء لله وشفعاء عنده ، فهم يقيسونه على ملوكهم الظالمين المتكبرين الذين لايصل إليهم أحد من رعاياهم إلا بوسائل حجابه ووزرائه ووسائطه .

ثم أكد ماسلف بقوله :

(وإن هم إلا يخرصون) أى وماهم فى اتباع هذا الظن الذى لايغنى من الحق شيئا إلا متخرصون قائلون بغير علم بما يقولون .

والخلاصة — إنهم إنما اتبعوا ظنونهم الفاسدة وأوهامهم الباطلة ، فقاسوا الرب فى تدبير أمور عباده على الملوك ، وجهلوا أن أفعال الله تعالى إنما تجرى بمقتضى مشيئته الأزلية على وفق علمه الذاتى وحكمته البالغة العادلة ، وأن جميع أوليائه وأنبيائه وملائكته عبيد مملوكون له تعالى : «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا » أى إن أقرب أولئك الذين يدعونهم ويتوسلون إليه بهم كالمسيح والملائكة ومن دونهم — يتوسلون إليه راجين خائفين لا كأعوان الملوك الذين لاينتظم أمر ملكهم بدونهم .

ثم أقام البرهان على مضمون ماقبله من نفى وجود شركاء له فى الخلق والتقدير وشفعاء عنده حين التصرف والتدبير فقال :

(هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا) أى هو الذى جعل لكم الوقت قسمين بمقتضى علمه ومشيئته بدون مساعد ولا شفيع ، فجعل الليل مظلما لأجل أن تسكنوا فيه بعد طول التعب والنصب والحركة للمعاش، وجعل النهار مضيئا ذا إبصار لتنتشروا فى الأرض وتقوموا بجميع أعمال العمران والكسب والشكر للرب . وقد جاء بمعنى الآية قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ » .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) أى إن فى اختلاف الليل والنهار وحال أهلهما فيهما لدلائل وآيات على أن المعبود بحق هو الذى خلق الليل والنهار وخالف بينهما — لقوم يسمعون مايتلى عليهم من التذكير بحكمته تعالى ووجه النعمة فى ذلك ، سماع تدبر وعظة لما يسمع .

وقد جاء بمعنى الآية قوله تعالى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ . وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ، هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَالَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)

شرح المفردات

الولد : يستعمل مفردا وجمعا ، وقد يجمع على أولاد وولدة وإلدة بالكسر فيهما، وسبحان: كلمة تنزيه وتقديس ، وتستعمل للتعجب ، والسلطان: الحجةوالبرهان.

المعنى الجملى

بعد أن حكى سبحانه وتعالى أن من المشركين من اتخذوا الأوثان والأصنام شفعاء عند الله ــ قفى على ذلك بذكر ضرب آخر من أباطيلهم ، وهو زعمهم أنه تعالى جدّه اتخذ ولدا ، وتلك مقالة اشترك فيها المشركون واليهود والنصارى على السواء .

الإيضاح

(قالوا اتخذ الله ولدا) أى وقال المشركون : الملائكة بنات الله ، وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله .

(سبحانه) أى تنزه ربنا عما لايليق بربوبيته وألوهيته ، ويمكن أن يكون المعنى - عجيب أن تصدر منهم تلك الكلمة الحمقاء .

ثم أكد هذا التنزيه بقوله :

(هو الغنى له مافى السموات ومافى الأرض) أى إن الله غنى عن خلقه جميعا فإن كل مافى الوجود من العالم العلوى والسفلى ملك له، ولاحاجة له إلى شىء منه وجميعه فى حاجة إليه ، ولايجانسه شىء منه ، فالإنسان يحتاج إلى الولد إما للنصرة والمعونة وإما للاعتزاز به لدى الأهل والعشيرة ، وإما لأنه زينة يلهو به فى صغره ويفخر به فى كبره ، وإما للحاجة إليه فى قضاء مصالحه أو لانتظار رفده وبره حين عجزه أو فقره ، وإما لبقاء ذكره بعد موته ، والله غنىّ عن كل ذلك ولاحاجة له إلى شىء من هذه المنافع فهو مُسْتَغْنٍ أزلا وأبدا .

(إن عندكم من سلطان بهذا) أى ليس عندكم من الدلائل والبراهين ما يؤيد صحة هذا القول الذى تقولونه بلا علم ولا وحى إلهى .

(أتقولون على الله ما لاتعلمون) أى أتقولون على الله قولا لا تعلمون حقيقته وتنسبون إليه تعالى ما لايجوز إضافته إليه ، ولا سيما بعد مجىء ما ينقضه من الأدلة العقلية والوحى الإلهى .

وفى الآية إيماء إلى أن كل قول لادليل عليه فهو جهالة ، وأن العقائد الدينية لابد فيها من دليل قاطع ، وأن التقليد فيها غير سائغ .

(قل إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون) أى قل لهم إن الذين يفترون على الله الكذب بنسبة الشركاء إليه ، أو باتخاذه ولدا لنفسه أو بدعوى أن

الأولياء يطلعون على أسرار خلقه ويتصرفون فى ملكه ، لا يفوزون بالتمتع بالنعيم بشفاعة الولد أو الشركاء الذين اتخذوهم له تعالى ولا ينجون من عذاب الآخرة .

(متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) أى هؤلاء لهم متاع فى الدنيا حقير يتلهون به فى حياة قصيرة هى الحياة الدنيا ، إذ مهما يبلغ هذا المتاع من العظمة ككثرة مال أو عظم جاهٍ فهو قليل بالنسبة إلى ماعند الله فى الآخرة للصادقين المتقين — ثم يرجعون إلى ربهم بالبعث بعد الموت وما فيه من أهوال الحشر والحساب ، فيذيقهم العذاب الشديد بسبب كفرهم بآيات الله وبالافتراء عليه وتكذيب رسله بعد أن قامت عليهم الحجة .

وفى الآية إيماء إلى أن ما يظن أنه فلاح بالحصول على منافع الدنيا المادية والمعنوية فهو لا يعتد به بالنسبة إلى ما عند الله من حظ عظيم ونعيم مقيم .

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِى وَتَذْكِيرِى بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ، ثُمَّ اقْضُوا إِلَىَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِى الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣)

شرح المفردات

النبأ : الخبر له خطر وشأن ، والمقام : الإقامة والمكث ، والإجماع : العزيمة على الأمر عزما لا تردد فيه .

أجمعــوا أمرهم بليل فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

والغمة : الستر واللبس ، يقال إنه لفى غمة من أمره: إذا لم يهتد له ، وقضاء الأمر: أداؤه وتنفيذه، قال تعالى « فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ » والإنظار: التأخير والإمهال ، خلائف ، أى يخلفون الذين هلكوا بالغرق ، المنذرون : المخوفون بالله وعذابه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه عناد المشركين لرسوله صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم له بعد أن قامت البراهين على صدقه — قفى على ذلك بذكر أقوام الرسل قبله تسلية له صلى الله عليه وسلم و بيانا بأن قومه لم يكونوا بدعا فى عنادهم وتكذيبهم له ولكن سبقهم فى مثل فعلهم كثير من سالفى الأمم وكانت العاقبة فوز الرسل عليهم ، وأتم الله لهم النصر ، فلعل أولئك القوم يتدبرون حالهم فيزدجروا بما فيه مزدجر لهم و يعترفوا بصدقه صلى الله عليه وسلم و يؤمنوا به قبل أن تفوت الفرصة السانحة فيندموا ، ولات ساعة مندم .

الإيضاح

(واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت) أى واقرأ أيها الرسول على المشركين من أهل مكة وغيرهم فيما أوعدتهم به من عقاب الله لهم على مقتضى سننه فى المكذبين لرسله من قبلك ـ خبر نوح حين قال لقومه ياقوم إن كان قد شق عليكم قيامى فيكم بالدعوة إلى عبادة ربكم وتذكيرى إياكم بآياته الدالة على وحدانيته ووجوب عبادته — فإنى قد وكلت أمرى إلى الله الذى أرسلنى واعتمدت عليه وحده بعد أن أديت رسالته بقدر طاقتى .

(فأجمعوا أمركم وشركاءكم) أى فأعدوا أمركم واعزموا على ما تقدمون عليه فى أمرى مع شركائكم الذين تعبدونهم من دون الله كما أدعو ربى وأتوكل عليه .

(ثم لا يكن أمركم عليكم غمة) أى ثم لا يكن أمركم الذى تعتزمونه خفيًّا عليكم فيه حيرة ولبس ، بل كونوا على بصيرة كيلا تتحولوا عنه .

(ثم اقضوا إلىّ ولا تنظرون) أى أدوا إلىّ ذلك الأمر بعد إجماعه واعتزامه، وبعد استبانته التى لا غمة فيها ولا التباس بأن تنفذوه بالفعل بعد استيفاء مقدماته كلها ، ولا تمهلونى بتأخير هذا القضاء .

والخلاصة — إن نوحا طلب إلى قومه على كثرتهم وقوتهم أن يفعلوا مااستطاعوا من الإيقاع به ، مطالبة المدلّ بيأسه وقوته المعتصم بإيمانه بوعد ربه وتوكله عليه ، فأمرهم بإجماع أمرهم بصادق العزيمة وقوة الإرادة ، وأن يضموا إلى هذه القوة النفسية قوة الإيمان بشركائهم وآلهتهم ، وألا يكون فى أمرهم الذى أجمعوا عليه شىء من الغمة والخفاء الذى قد يوجب الوهن والتردد فى التنفيذ .

(فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين) أى فإن أعرضتم عن تذكيرى بعد دعائى إياكم وتبليغ رسالة ربى إليكم ، فلن يضرنى فإنى لم أسألكم على ما دعوتكم إليه أجرا ولا جزاءا ، وما جزاء عملى وثوابى إلا على ربى الذى أرسلنى إليكم فهو يوفينى إياه ، آمنتم أو توليتم ، وأمرت أن أكون من المنقادين بالفعل لما أدعوكم إليه .

(فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك) أى فأصروا على تكذيبه بعد أن أقام عليهم الحجة بقوله وعمله على حقيقة دعوته ، فنجيناه هو ومن آمن معه فى السفينة التى كان يصنعها بأمرنا .

(وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) أى وجعلنا الذين نجينا مع نوح فى السفينة خلائف فى الأرض من قومه الذين كذبوه بعد أن أنذرناهم فأغرقناهم وحقت عليهم كلمة ربك، فانظر أيها الرسول بعين بصيرتك وعقلك كيف كانت عاقبة الذين أنذرهم رسولهم وقوع عذاب الله بهم وأصروا على

تكذيبه ، وهكذا تكون عاقبة من يصرون على تكذيبك من قومك ، وعاقبة المؤمنين المتقين لك .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤)

شرح المفردات

الطبع على القلوب : هو عدم قبولها شيئا غير ما رسخ فيها واستحوذ عليها ، والمعتدى : المتجاوز حدود الحق والعدل اتباعا لهوى النفس وشهواتها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه قصص نوح مع قومه وبيّن عاقبة أمرهم حين كذبوه ونصر الله له عليهم ، بيّن هنا عبرة أخرى من عبر مكذبى الرسل وسنة من سنن الله فيهم عسى أن يعتبر بها أهل مكة فيعلموا أن لله سننا لاتبديل فيها ولا تحويل فيتقوا مثل تلك العاقبة التى خلت بمن قبلهم من المكذبين من قوم نوح وغيرهم ، واتقاؤه فى مُكْنَتِهم وهو بأيديهم يمكنهم أن يجتنبوه ويبتعدوا عن أسبابه كالكفر والاعتداء والظلم ونحوها .

الإيضاح

(ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات) أى ثم بعثنا من بعد نوح رسلا مثله إلى أقوامهم الذين كانوا مثل قومه فى تكذيب رسلهم فقد أرسل هود إلى عاد ، وصالح إلى ثمود ، ولم يرسل رسول منهم إلى كل الأقوام الذين كانوا فى زمانه إلا شعيبا فإنه أرسل إلى قومه أهل مدين وإلى جيرانهم أصحاب المؤتفكة فقد كانوا

متحدين معهم لغة ووطنا ، فجاء كل رسول منهم قومه بالحجج الدالة على صدقه فى رسالته على حسب ما يتسنى لهم فهمه من الأدلة العقلية والحسية .

(فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل) أى فما استقام لقوم من أولئك الأقوام أن يؤمن المتأخر منهم بما كذب به المتقدم من قبل ممن كان مثله فى سبب كفره وهو استكبار الرؤساء وتقليد الدهماء .

(كذلك نطبع على قلوب المعتدين) أى مثل هذا الطبع وعلى ذلك النهج نطبع على قلوب المعتدين أمثالهم فى كل قوم كقومك إذ كانوا مثلهم فى اللجاج والعتوّ والاستكبار فى الأرض « وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً » .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهٰرُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨)

شرح المفردات

الملأ : أشراف القوم الذين يجتمعون على رأى ، ولفته عن كذا : صرفه .

المعنى الجملى

أفردت قصة موسى وهرون مع فرعون وملئه وفصلت تفصيلا وافيا لما لها من شديد الخطر وعظيم الأثر ، إذ فيها من العبرة أن قوة الحق تثل العروش وتهد أركان

الباطل وإن علا أصحابه ، فقد كان الفلج والظفر لموسى على ذلك الطاغية الذى قال أنا ربكم الأعلى ، وانتهى أمره بالغرق وصار مثلا للآخرين .

الإيضاح

(ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين) أى ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل صلوات الله عليهم موسى وهرون إلى فرعون مصر وأشراف قومه ، وخصهم بالذكر لأن قومهم القبط كانوا تبعا لهم يكفرون بكفرهم ويؤمنون بإيمانهم إن آمنوا ويرجعون إليهم فى إقامة المصالح والمهمات مؤيدين له بآياتنا التسع المبينة فى سورة الأعراف ، فأعرضوا عن الإيمان كبرا وعلوا مع علمهم بأن ماجاءا به هو الحق لما كانوا عليه من العلم بصناعة السحر ولكنهم كانوا راسخين فى الإجرام والظلم والفساد فى الأرض كما قال تعالى « وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ » .

(فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين) أى فلما جاءهم موسى بالحجج والبينات الدالة على الربوبية والألوهية قالوا من فرط عتوّهم وعنادهم : إن هذا لسحر واضح لمن رآه وعاينه .

(قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا؟ ولايفلح الساحرون) أى قال لهم موسى على وجه الإنكار والتوبيخ : أتقولون للحق الواضح الظاهر وهو أبعد الأشياء عن السحر الذى هو باطل حين جاءكم دون أن تترووا وتتدبروا فيه : إنه سحر وما ترونه بأعينكم من آيات الله وترجف له قلوبكم من عظمته لا يمكن أن يكون سحرا من جنس ما تعرفونه وتصنعونه بأيديكم ، وقد مضت سنة الله بأن السحرة لا يفوزون فى الأمور الهامة كالدعوة لدين والتأسيس لملك ، وذلك ما تتهموننى به على ضعفى وقوتكم ، فإن السحر شعوذة لاتلبث أن تفتضح وتزول .

وبعد أن أفحمهم بحجته ولم يجدوا ردّا مقنعا اضطروا إلى التشبث بذيل التقليد

للآباء والأجداد وتلك حجة العاجز المضعوف فى رأيه ذى الخطل فى تصرفه ، فلم يكن منهم إلا تلك المقالة .

(قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين) أى قالوا له منكرين : ما جئتنا إلا لتصرفنا وتحولنا عما وجدنا عليه آباءنا وأجدادنا من ديننا لنتبع دينك وتكون لك ولأخيك كبرياء الرياسة الدينية وما يتبعها من كبرياء الملك والعظمة الدنيوية التابعة لها فى أرض مصر كلها ، وما نحن بمتبعين لكما اتباع إيمان و إذعان فيما يخرجنا من دين آبائنا الذى تدين به عامتنا ، وتتمتع بكبريائه خاصتنا ، وهم الملك وأشراف قومه .

والخلاصة — إنه لا غرض لك من تلك الدعوة إلا هذا وإن لم تعترف به ، وقد وجهوا الخطاب أوّلا لموسى لأنه هو الداعى لهم ، وأشركوا معه أخاه فى فائدة الدعوة والغرض منها وهى الكبرياء فى الأرض لأنهما سيشتركان فيها .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢)

المعنى الجملى

كانت الآيات الماضية فى ذكر الحوار بين موسى وفرعون — وهنا ذكر ما فعل فرعون فى مقاومة دعوة موسى لصدّ الناس عن اتباعه باعتبار أنه ساحر فأحضر السحرة ليقاوموا عمله ، و يتغلبوا عليه فيبطلوا حجته .

الإيضاح

(وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم) أى قال لملئه بعد أن يئس من إلزامه بالقول : اعملوا على دفع حجته بالفعل فأتونى بكل ساحر عليم بفنون السحر ، حاذق ماهر فيها .

(فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون) أى فأتوا بهم فلما جاءوا قال لهم موسى هذه المقالة بعد أن خيروه بين أن يلقى ما عنده أوّلا أو يلقوا ما عندهم كما جاء ذلك فى سورتى الأعراف وطه — ليظهر الحق و يبطل الباطل .

(فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر) أى فلما ألقوا حبالهم وعصيهم السحرية قال لهم موسى غير مكترث بهم ولا بما صنعوا : إن هذا الذى فعلتم وألقيتموه أمام النظارة هو السحر لا ماجئتُ به من الآيات البينات من عند الله وقد سماه فرعون وملؤه سحرا .

(إن الله سيبطله) أى إن الله سيظهر بطلانه بما يظهره على يدىّ من المعجزة حتى يظهر للناس أنه صناعة لا آية خارقة للعادة ، وحجة واضحة على بطلان حجتى .

ثم علل ما قال ببيان سنن الله فى تنازع الحق والباطل والصلاح والفساد فقال :

(إن الله لا يصلح عمل المفسدين ، و يحق الله الحق بكلماته) أى إن الله لا يجعل عمل المفسدين صالحا للبقاء فيقويه بالتأييد الإلهى و يديمه ، بل يزيله و يمحقه ، و يثبت الحق الذى فيه صلاح الخلق و ينصره على ما يعارضه من الباطل بكلماته التكوينية وهى مقتضى إرادته التشريعية التى يوحيها إلى رسله ، ومن ثم سينصر موسى على فرعون و ينقذ قومه من عبوديته .

(ولو كره المجرمون) أى ولو كره كل من اتصف بالإجرام كفرعون وملئه .

فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ، وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ(٨٣)

وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا . رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧)

شرح المفردات

الذرية فى اللغة : صغار الأولاد ، وتستعمل فى الصغار والكبار عرفا ، والفتون : الابتلاء والاختبار الشديد للحمل على الفعل أو الترك ، والمراد هنا الاضطهاد والتعذيب، والعلو : القهر والاستبداد ، ومسلمين : أى مذعنين ومستسلمين ، وتبوأ الدار : اتخذها مباءة ومسكنا يبوء ويرجع إليها كلما فارقها لحاجة ، والقبلة : مايقابل الإنسان ويكون تلقاء وجهه، ومنه قبلة الصلاة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه مافعله فرعون لمقاومة دعوة سيدنا موسى – قفى على ذلك بذكر ما كان من بنى إسرائيل مع موسى توطئة لإخراجهم من أرض مصر .

الإيضاح

(فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم) أى إن إصرار فرعون وقومه على الكفر بموسى بعد خيبة السحرة وظهور حقه على باطلهم ثم عزمه على قتله ، كما جاء فى قوله : « وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِى أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِى الْأَرْضِ الْفَسَادَ » .

كل هـذا أوقع الرعب والخوف فى قلوب بنى إسرائيل قوم موسى فما آمن له إلاذرية من قومه، وهم الأحداث والشبان وكانوا خائفين من فرعون وأشراف قومهم الجبناء المرائين الذين هم عرفاؤهم عند فرعون فيما يطلب منهم ـ أن يضطهدوهم و يعذبوهم ليرتدوا عن دينهم .

(و إن فرعون لعال فى الأرض و إنه لمن المسرفين) أى و إن فرعون لشديد العتوّ قوى القهر فى أرض مصر فهو جدير بأن يخاف منه كما حكى الله عنه بقوله : وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ؟ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ » كما أنه من المسرفين المتجاوزين الحد فى الظلم والفساد بالقتل وسفك الدماء وغمط الحق واحتقار الخلق، ومن ثم ادعى الربوبية واسترق أسباط الأنبياء .

(وقال موسى ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) أى وقال موسى لمن آمن من قومه وقد رأى خوفهم من الفتنة والاضطهاد : إن كنتم آمنتم بالله حق الإيمان فعليه توكلوا ، و بوعده فثقوا إن كنتم مستسلمين مذعنين ، إذ لا يكون الإيمان يقينا إلا إذا صدقه العمل وهو الإسلام ، وليس فى الآية دلالة على إيمان جميع قومه ، إذ الإيمان بالله غير الإيمان لموسى المتضمن معنى الإسلام والاتباع الذى أشير إليه بقوله : « إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ » فهم قد طلبوا منه بعد ما نجاهم من الغرق أن يجعل لهم آلهة من الأصنام ثم اتخذوا العجل المصنوع وعبدوه .

(فقالوا على الله توكلنا ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين) أى فقالوا على الفور ممتثلين أمره حين علموا أن إنجاز الوعد موقوف على ذلك : على الله توكلنا ، ودعوا بأن يحفظهم ربهم من فتنة القوم الظالمين .

ذاك أن التوكل على الله وهو أعظم علامات الإيمان لايكمل إلا بالصبر على الشدائد ، والدعاء لايستجاب إلا إذا كان مقرونا باتخاذ الأسباب بأن تعمل ماتستطيع عمله ، وتطلب إلى الله أن يسخر لك مالاتستطيع .

وخلاصة ما قالوا — ربنا لا تسلطهم علينا فيفتنونا ، ولا تفتنا بهم فنتولى عن اتباع نبينا أو نضعف فيه فرارا من شدة ظلمهم لنا ، ولا تفتنهم بنا فيزدادوا كفرا وعنادا وظلما بظهورهم علينا ويظنوا أنهم على الحق ونحن على الباطل .

وقد دلت التجارب على أن سوء حال المؤمنين من ضعف أو فقر تجعلهم موضعا لافتنان الكفار بهم باعتقاد أنهم خير منهم كما جاء فى قوله : « وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ؟ » .

(ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) أى ونجنا برحمتك تخلصنا من أيدى القوم الكافرين قوم فرعون لأنهم كانوا يستعبدونهم ويستعملونهم فى المهن الحقيرة ، ومثل هذا قوله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم والذين آمنوا معه : « رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

(وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوأا لقومكما بمصر بيوتا) أى قلنا لهما : اتخذا لقومكما بيوتا فى مصر تكون مساكن وملاجىء تعتصمون بها .

(واجعلوا بيوتكم قبلة) أى واجعلوا بيوتكم متقابلة فى وجهة واحدة .

(وأقيموا الصلاة) فيها متجهين إلى جهة واحدة لأن الاتحاد فى الاتجاه يساعد على اتحاد القلوب .

(وبشر المؤمنين) بحفظ الله إياهم من فتنة فرعون وملئه الظالمين لهم وتنجيتهم من ظلمهم .

وإنما خص موسى بالتبشير لأن بشارة الأمة وظيفة صاحب الشريعة ، وأشرك معه هرون فى أمر قومهما بالتبوأ لأنه مما يتولاه الرؤساء بتشاور بينهم فهو تدبير عملى يقوم به هو ووزيره المساعد على تنفيذه .

وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ، رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ (٨٩)

شرح المفردات

الزينة : الحلل والحلى والأثاث والرياش والماعون ، والأموال : ما وراء ذلك من الذهب والفضة والأنعام والزروع ونحو ذلك ، والطمس : الإزالة ، يقال طمس الأثر وطمسته الريح: إذا زال ، والشد على القلب:الطبع عليه وقسوته حتى لاينشرح للإيمان.

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه جبروت فرعون وملئه وخوف بنى إسرائيل من بطشهم وأنهم امتنعوا لأجل ذلك عن الإيمان ، إلا قليلا من شبانهم استجابوا لدعوة موسى بعد حثٍّ لهم وتحريض على الإيمان وطلب موسى من بنى إسرائيل أن يتخذوا بيوتا لهم بمصر يقيمون فيها مراسم دينهم ، ثم بشرهم بالفوز والغلبة والنصر ـ قفّى على ذلك بدعوة موسى على فرعون وقومه مع ذكر السبب الذى دعاه إلى ذلك ، وهو الجحود والعناد لدعوته لما أوتوه من بسطة النعمة التى أبطرتهم فتركوا الدين وراءهم ظهريا .

الإيضاح

(وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا) أى وقال موسى بعد أن أعد قومه بنى إسرائيل للخروج من مصر على قدر مايستطيع من الإعداد الدينى والدنيوى ، وغرس فى قلوبهم الإيمان وحب العزة والكرامة ونحو

ذلك وتوجه إلى الله أن يتم أمره : ربنا إنك أعطيت فرعون وأشراف قومه وكبراءهم زينة من حلىّ وحلل وآنية وماعون وأثاث ورياش وأموالا كثيرة من صامت وناطق أى من ذهب وفضة وزروع وأنعام يتمتعون بها وينفقون منها فى حظوظهم وشهواتهم .

(ربنا ليضلوا عن سبيلك) أى لتكون عاقبة ذلك إضلال عبادك عن السبيل الموصلة إلى مرضاتك باتباع الحق والعدل وصالح العمل .

وقد جرت سنة الله بأن كثرة الأموال تورث الكبرياء والخيلاء والبطر والطغيان وتخضع رقاب الناس لأربابها كما قال تعالى: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى».

وقد أثبت البحث والتنقيب فى نواويس قبور المصريين التى كشفت حديثا ، وفيما حفظ فى دور الآثار المصرية وغيرها من العواصم الأوربية ، مايشهد بكثرة تلك الأموال ووجود أنواع من الزينة والحلى لم تكن لتخطر على البال ، ويدل على أرقى أنواع المدنية والحضارة التى لاتضارعها مدنية العصر الحاضر مع مابلغه العلم والرقى العقلى فى الإنسان .

(ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) أى ربنا امحق أموالهم بالآفات التى تصيب زروعهم والجوائح التى تهلك أنعامهم وتنقص مكاسبهم فيذوقوا ذل الحاجة ، واطبع على قلوبهم وزدها قسوة على قسوتها وإصرارا وعنادا فيستحقوا شديد عقابك ولا يؤمنوا إلا إذا رأوا عذابك ولا ينفعهم إيمانهم إذ ذاك .

وسبب غضبة موسى أنه عرض عليهم آيات الله وبيناته عرضا مكررا وردد عليهم المواعظ والنصائح ردحا من الزمن وحذرهم عذاب الله وانتقامه وأنذرهم عاقبة ماهم عليه من الكفر والضلال المبين ثم لم يزدهم ذلك إلا كفرا وعتوا واستكبارا فى الأرض ، ولم يبق له مطمع فيهم ، وعلم بالاختبار أنه لا يكون منهم إلا الضلال وأن إيمانهم كالمحال ـ فاشتد عليهم ومقتهم ودعا عليهم بما علم أنه لا يكون غيره ، إذ لم يبق له فيهم حيلة وأنهم لايستأهلون إلا أن يخذلوا ويخلى بينهم وبين ضلالهم يتسكعون فيه ويسيرون قدما فى طريق الغى والهلاك .

وخلاصة ذلك — كأنه قيل فليثبتوا على ضلالهم وليطبع الله على قلوبهم فلا يؤمنوا وما علىّ منهم، هم أهل لذلك وأحق به ، ومامثله إلامثل قول الأب المشفق على ولده الذى انحرف عن جادة الاستقامة ولم يقبل منه نصيحة : فلتمض فى غوايتك ولتعث فى الأرض فسادا ، وهو لايريد غوايته بل حَرَدا وغضبا عليه .

وقد روى أن موسى دعا بهذا الدعاء وهرون عليه السلام كان يؤمّن على دعاء أخيه، ومن ثم قال تعالى :

(قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لايعلمون) أى قال لهما عز اسمه قد قبلت دعوتكما فى فرعون وملئه وأموالهم ، فامضيا لأمرى واثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة إلى الحق ، ومن إعداد شعبكما للكفاح والجلاد والخروج من مصر ، ولاتسلكا سبيل الذين لايعلمون سنتى فى خلقى فيستعجلا الأمر قبل ميقاته ويستبطئا وقوعه فى حينه .

وفى سفر الخروج من التوراة مايدل على استجابة دعاء موسى فقد كانت تنزل النوازل على مصر وأهلها فيلجأ فرعون إلى موسى حين كل نازلة منها ليدعو ربه فيكشفها عنهم فيؤمنوا به حتى إذا كشفها قسّى الرب قلب فرعون فأصر على كفره ، وما قاله المفسرون فى تفسير الطمس على الأموال فهو من ترّهات الأباطيل الإسرائيلية التى روجها كعب الأحبار وأمثاله ممن كان مقصدهم صد اليهود عن الإسلام بما يروونه فى تفسيره مخالفا لما هو متفق عليه عندهم وعند غيرهم من المؤرخين فى وقائع عملية وأمور حسية .

وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ

الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢)

شرح المفردات

يقال : جاز المكان وجاوزه وتجاوزه : إذا قطعه حتى خلفه وراءه ، ويقال تبعته حتى أتبعته إذا كان قد سبقك فلحقته ، المسلمين : أى المنقادين لأمره ، وننجيك : نجعلك على نجوة من الأرض ، والنجوة : المكان المرتفع من الأرض ، والآية : العبرة والعظة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه ما دار من الحوار بين موسى وفرعون وذكر ما أتى به موسى من الحجج والبينات الدالة على صدقه وغلبه لسحرة فرعون ولم يزده ذلك إلا كبرا وعتوًّا فدعا عليه بالطمس على الأموال والشد على القلوب وذكر استجابة الله دعوته — قفى على ذلك بذكر خاتمة القصة وهو ما كان من تأييد الله لموسى وأخيه على ضعفهما وقوة فرعون وقومه ، إذ كانت دولته أقوى دول العالم فى عصره .

الإيضاح

(وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) أى جاوز بنو إسرائيل البحر بمعونته تعالى وقدرته وحفظه وكان آية من آياته لنبيه موسى عليه السلام بفرقه تعالى بهم البحر وانفلاقه لهم ، فلحقهم فرعون وجنوده ظالمين عادين عليهم ليفتكوا بهم أو يعيدوهم إلى مصر ليسوموهم سوء العذاب ويجعلوهم

عبيدا لهم ، وخاض البحر وراءهم حتى إذا أشرف على الغرق قال آمنت أنه لا إله بحق إلا الرب الذى آمنت به جماعة بنى إسرائيل بدعوة موسى ، وأنا ممن أذعنوا لأمره بعد ما كان منى من جحود بآياته وعناد لرسوله .

وكرر المعنى الواحد بثلاث عبارات حرصا منه على القبول المفضى إلى النجاة ، ولكن هيهات فقد فات الوقت وجاء الإيمان حين اليأس وهو لا يجدى فتيلا ولا قطميرا — وهذا ما بينه سبحانه بقوله موبخا له .

(آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) أى وقيل له أتسلم الآن حين يئست من الحياة وأيقنت بالممات ، وقد عصيت قبل ذلك وكنت من المفسدين فى الأرض الظالمين للعباد ، فدعواك الإسلام الآن لا تقبل ، فقد صار إسلامك اضطرارا لا اختيارا .

وخلاصة المعنى — آلآن تُقِرُّ لله بالعبودية وتستسلم له بالذلة وتخلص له الألوهية وقد عصيته قبل نزول نقمته بك فأسخطته على نفسك وكنت من المفسدين فى الأرض الصادين عن سبيله ، فهلا أقررت بما أقررت به الآن وباب التوبة لك منفتح .

(فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية) أى فاليوم نجعلك على نجوة من الأرض ببدنك ينظر إليك من كذب بهلاكك ، لتكون عبرة لمن بعدك من الناس يعتبرون بك فينزجرون عن معصية الله والكفر به والسعى فى الأرض بالفساد .

ووجه العبرة فى ذلك — أنه يكون شاهدا على صدق وعد الله لرسله ، ووعيده لأعدائهم كطغاة مكة التى أنزلت هذه الآيات لإقامة حجج الله عليهم قبل غيرهم .

(وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) أى وإن كثيرا من الناس لفى غفلة عن حججنا وأدلتنا على أن العبادة له وحده خالصة ، فهم يمرون عليها وهم عنها معرضون ، فلا يتفكرون فى أسبابها ونتائجها وحكم الله فيها .

وفى ذلك إيماء إلى ذم الغفلة وعدم التفكر فى أسباب الحوادث وعواقبها واستبانة سنن الله فيها للعظة والاعتبار .

ووا أسفا قد صار من نزل فيهم القرآن من بينهم بل فى مقدمتهم وهو حجة عليهم وهو منهم براء .

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)

شرح المفردات

مبوأ صدق : أى منزلا صالحا مرضيا . وأصل الصدق ضد الكذب ولكن قد جرت عادة العرب أنهم إذا مدحوا شيئا أضافوه إلى الصدق فقالوا مكان صدق إذا كان كاملا فى صفته صالحا للغرض المقصود منه ، كأنهم أرادوا أن كل ما يظهر فيه من الخير فهو صادق ، والعلم هنا علم الدين .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه خاتمة فرعون وجنوده — قفى على ذلك بذكر عاقبة بنى إسرائيل ، وفى هذا عبرة لمكذبى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والجاحدين من قومه المفترين بقوتهم وكثرتهم وثروتهم — فقد كان فرعون وقومه أكثر منهم عددا وأشد قوة وأوفر ثروة ، وقد جعل الله سننه فى المكذبين واحدة ، ففكروا أيها المكذبون فى عاقبة أمركم وتدبروا مليا خوف أن يحل بكم مثل ما حل بهم ، وها هو ذا أهلك أكثر زعمائهم وجعل العاقبة لأتباعه المؤمنين وأعطاهم أعظم ملك فى العالمين .

الإيضاح

(ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق) أى ولقد أسكناهم منزلا مرضيا وهو منزلهم من بلاد الشام الجنوبية وهى بلاد فلسطين ، وهو بمعنى قوله « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا » .

(ورزقناهم من الطيبات) أى ورزقناهم من اللذائذ فيها ، وقد جاء وصفها فى كتبهم بأنها تفيض لبنا وعسلا ، وفيها كثير من الغلات والثمرات والأنعام وصيد البر والبحر .

(فما اختلفوا حتى جاءهم العلم) أى فما اختلف بنو إسرائيل إلا بعد ما علموا بقراءة التوراة والوقوف على أحكامها ، ذلك أنهم كانوا قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم مجمعين على نبوته والإقرار به وبمبعثه غير مختلفين فيه بالنعت الذى كانوا يجدونه مكتوبا عندهم ، فلما جاءهم ما عرفوا كفر به بعض وآمن آخرون .

(إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) أى إن هذا النوع من الاختلاف لا سبيل لإزالته فى دار الدنيا ، بل سيقضى الله بينهم فى الآخرة فيميز الحق من الباطل ويدخل الأولين الجنة والآخرين النار وبئس القرار .

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧)

المعنى الجملى

بعد أن قص سبحانه قصص الأنبياء السالفين وما لاقوه من أقوامهم من العناد والجحود والاستكبار والعتو ، وفى كل حال كان النصر حليف المؤمنين والخذلان نصيب الظالمين — قفى على ذلك بذكر صدقه فيما قال ووعد وأوعد وكون ذلك سنة الله فى المكذبين قبل ، وسيكون ذلك فيهم من بعده ، وليس فى هذا سبيل للافتراء والشك ، وقد ساق ذلك بطريق التلطف فى الأسلوب فوجه الكلام إلى الرسول صلى الله عليه وسلم والمراد قومه فجاء على نحو قولهم: إياك أعنى واسمعى ياجاره ، وقد جاء مثل هذا فى قوله تعالى « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ » وقوله « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ » .

الإيضاح

(فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك) المراد بالكتاب جنسه أى الكتب السالفة كالتوراة والإنجيل ، أى فإن كنت أيها الرسول فى شك مما قلناه فى تلك الشواهد من قصة هود ونوح وموسى وغيرهم فرضا وتقديرا ، فاسأل الذين يقرءون كتب الأنبياء كاليهود والنصارى فإنهم يعلمون أن ما أنزلناه إليك حق لايستطيعون إنكاره .

وقد جرت عادة العرب أن يقدروا الشك فى الشىء ليبنوا عليه ما ينفى احتمال وقوعه فيقول أحدهم لابنه : إن كنت ابنى فكن شجاعا ، وجاء من هذا قول المسيح عليه السلام مجيبا ربه تعالى عن سؤاله إياه « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ » فهو عليه السلام يعلم أنه لم يقله ولكنه يفرضه ليستدل على ذلك بأنه لو قاله لعلمه الله منه ، ويجرى العلماء فى محاوراتهم بينهم و بين نظرائهم

أو بينهم و بين تلاميذهم على هذا النمط ، فيشككونهم فيما لا شك فيه عندهم ليبنوا على ذلك أحكاما أخرى فيقولون: إن كانت الخمسة زوجا كانت منقسمة إلى متساويين، أى إن كون الخمسة زوجا يستلزم ذلك ، وهذا لا يدل على أن الخمسة زوج وهكذا ما فى الآية فهو يدل على أنه لو حصل الشك لكان الواجب هو فعل كذا وكذا ، وليس فيها دليل على وقوعه .

(لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) الامتراء الشك والتردد ، أى لقد جاءك الحق الواضح بأنك رسول الله وأن هؤلاء اليهود والنصارى يعلمون صحة ذلك و يجدون نعتك فى كتبهم ، فلا تكونن من الشاكين فى صحة ذلك .

وهذا النهى وما بعده يدلان على أن فرض الشك والسؤال فيما قبلهما تعريض بالشاكين والمكذبين له من قومه ممن لم تستنر بصيرتهم بنبوته صلى الله عليه وسلم فأظهروا الإيمان بألسنتهم ولم يثبت فى قلوبهم فهم فى شك فيه .

(ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين) أى ولا تكونن أيها الرسول ممن كذب بآيات الله وحججه فى الأكوان مما يدل على وحدانيته وقدرته على إرسال الرسل لهداية البشر فتكونن ممن خسروا أنفسهم بالحرمان من الإيمان وما يتبعه من سعادة الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين، فالشك والامتراء فيما أنزل إليك كالتكذيب بآيات الله جحودا بها وعنادا ، كلاهما سواء فى الخسران المذكور لحرمان الجميع من الهداية بها والوصول إلى السعادة فى الدارين .

(إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون) أى إن الذين ثبتت عليهم كلمة ربك بعذابهم على حسب سننه تعالى فى خلقه بفقدهم الاستعداد للاهتداء ، لا يؤمنون لرسوخهم فى الكفر والطغيان وإحاطة خطاياهم بهم وإعراضهم عن آيات الله التى خلقها فى الأكوان بما يرشد إلى وحدانيته وكمال قدرته .

(ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) أى ولو جاءتهم كل آية من

الآيات الكونية كآيات موسى عليه السلام التى اقترحوا مثلها عليك ، والآيات المنزلة عليك كآيات القرآن العقلية الدالة بإعجازها على أنها من عند الله وعلى حقية ما تدعوهم إليه وتنذرهم به حتى يروا العذاب الأليم بأعينهم و يذوقوه حين ينزل بهم فيكون إيمانهم اضطرارا لا اختيارا منهم فلا يترتب عليه عمل منهم يطهرهم و يزكيهم و يقال لهم إذا ذاك « آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ » .

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠)

شرح المفردات

لولا : كلمة تفيد التحضيض والتوبيخ كهلاّ ، والمراد بالقرية أهلها وهو كثير الاستعمال بهذا المعنى ، والخزى : الذل والهوان ، والحين : مدة من الزمن والمراد بها العمر الطبيعى الذى يعيشه كل شخص ، والإذن بالشىء : الإعلام بإجازته والرخصة فيه ورفع الحجر عنه ، والرجس : لغة الشىء القبيح المستقذر ، والمراد به هنا العذاب .

المعنى الجملى

هذه الآيات الثلاث تكملة لما قبلها و بيان لسنن الله تعالى فى الأمم مع رسلهم وفى خلق البشر مستعدين للإيمان والكفر والخير والشر وفى تعلق مشيئة الله وحكمته بأفعاله وأفعال عباده ووقوعها على وفقهما ، فبعد أن بين أن الذين حقت عليهم كلمة

ربك لايؤمنون حتى يروا العذاب الأليم — أتبعه بذكر هذه الآيات للدلالة على أن قوم يونس آمنوا بعد كفرهم وانتفعوا بذلك الإيمان .

الإيضاح

(فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها) أى فهلا كان أهل قرية من قرى أقوام أولئك الرسل آمنوا بعد دعوتهم و إقامة الحجة عليهم فنفعهم إيمانهم قبل وقوع العذاب الذى أنذروا به .

وخلاصة ذلك — إنه لم يؤمن قوم منهم بحيث لم يشذ منهم أحد .

(إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) يونس عليه السلام بعث فى أهل نينوى بأرض الموصل وكانوا أهل كفر وشرك فدعاهم إلى الإيمان بالله وحده وترك ما يعبدون من الأصنام فأبوا عليه وكذبوه ، فأخبرهم أن العذاب مصبّحهم بعد ثلاث ليال ـ فلما كانت الليلة الثالثة ذهب عنهم من جوف الليل، فلما أصبحوا تغشاهم العذاب ، فلما أيقنوا بالهلاك طلبوا نبيهم فلم يجدوه فخرجوا إلى الصحراء بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ولبسوا المسوح وأظهروا الإيمان والتوبة وتضرعوا إلى ربهم وأخلصوا النية فرحمهم واستجاب دعاءهم وكشف عنهم ما نزل بهم من العذاب .

والخلاصة — إن قوم يونس لما آمنوا قبل وقوع العذاب بهم بالفعل وكانوا علموا بقربه من خروج نبيهم ـ صرفنا عنهم عذاب الذل والهوان فى الدنيا بعد ما أظلهم وكاد ينزل بهم ، ومتعناهم بمتاعها إلى زمن معلوم وهو الوقت الذى يعيش فيه كل منهم على حسب سنن الله فى استعداد بنيته ومعيشته .

وفى ذلك تعريض بأهل مكة و إنذار لهم وحض على أن يكونوا كقوم يونس الذين استحقوا العذاب بعنادهم ، حتى إذا أنذرهم نبيهم بقرب وقوعه وخرج من بينهم اعتبروا وآمنوا قبل اليأس وقبل أن ينزل بهم البأس .

(ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا) أي ولو شاء ربك أن يؤمن أهل الأرض كلهم جميعا لآمنوا بأن يلجئهم إلى الإيمان قسرا ، أو يخلقهم مؤمنين طائعين كالملائكة ، لا استعداد فى فطرتهم لغير الإيمان .

وجاء فى معنى الآية قوله « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا » وقوله « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً » .

وخلاصة ذلك — إنه لو شاء ربك ألا يخلق الإنسان مستعدا بفطرته للخير والشر والإيمان والكفر ، ومرجحا باختياره لأحد الأمور الممكنة على ما يقابله بإرادته ومشيئته ـ لفعل ذلك، ولكن اقتضت حكمته أن يخلقه هكذا يوازن باختياره بين الإيمان والكفر ، فيؤمن بعض ويكفر آخرون .

(أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) أى إن هذا ليس بمستطاع لك ولا من وظائف الرسالة التى بعثت بها أنت وسائر الرسل الكرام كما قال تعالى « إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ » وقال « وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » وقال « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ » .

(وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله) أى وما كان لنفس بمقتضى ما أعطاها الله من الاختيار والاستقلال فى الأفعال ، أن تؤمن إلا بإرادة الله ومقتضى سننه فى الترجيح بين المتقابلين ، فالنفس مختارة فى دائرة الأسباب والمسببات ، ولكنها غير مستقلة فى اختيارها استقلالا تاما ـ بل مقيدة بنظام السنن والأقدار الإلهية .

(ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون) أى وإذا كان كل شىء بإذنه وتيسيره ومشيئته التى تجرى بقدره فهو يجعل الإذن وتيسير الإيمان للذين يعقلون آياته ويوازنون بين الأمور فيختارون خير الأعمال ويتقون شرها ويرجحون أنفعها على أضرها بإذنه تعالى وتيسيره ، ويجعل الخذلان والخزى المرجح للكفر والفجور على الذين لا يعقلون ولا يتدبرون ، إذ هم لخطل رأيهم وسلوك سبيل الهوى يرجحون الكفر على الإيمان والفجور على التقوى .

قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ، قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن سننه فى نوع الإنسان ، أن خلقه مستعدا للإيمان والكفر والخير والشر ، ولم يشأ أن يجعله على طريقة واحدة إما الكفر وحده وإما الإيمان وحده ، وإنك أيها الرسول لاتقدر على جمله على غير ذلك — بين هنا أن مدار سعادته على استعمال عقله فى التمييز بين الخير والشر ، وما على الرسول إلا التبشير والإنذار وبيان الطريق المستقيم الذى يوصل إلى السعادة ، وما الدين إلا مساعد للعقل على حسن الاختيار إذا أحسن النظر والتفكير اللذين أمر الله بهما.

الإيضاح

(قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) أى قل لهم أيها الرسول لمن تحرص على هدايتهم من قومك : انظروا بأبصاركم وبصائركم ماذا فى السموات والأرض من كواكب نيرات ، ثوابت وسيارات، وشمس وقمر، وليل ونهار، وسحاب ومطر، وهواء وماء ، وليل ونهار، وإيلاج أحدهما فى الآخر حتى يطول هذا ويقصر ذاك ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير وصنوف النبات ، وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران ، وما فى البحر من عجائب وهو مسخر مذلل للسالكين ، يحمل سفنهم ويجرى بها برفق بتسخير القدير العليم

الذى لا إله غيره ولا رب سواه « وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » إنه يريكم كل هذه الآيات ثم أنتم تشركون .

(وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) تغنى : تنفع وتفيد ، والنذر واحدها نذير ، أى إن الآيات الكونية على ظهور دلالتها والرسل على بلاغة حجتها لا تجدى نفعا لقوم لا يتوقع إيمانهم ، لأنهم لم يوجهوا أنظارهم إلى الاعتبار بالآيات والاستدلال بها على ما تدل عليه من وحدانية الله وقدرته . والاعتبار بسننه فى خلقه والاستفادة منها فيما يزكى النفس ويرفعها عن أرجاس الأمور .

(فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم) يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم محذرا مشركى قومه من حلول عاجل نقمة ربهم بهم وقد حل بمن قبلهم من سائر الأمم الخالية التى سلكت فى تكذيب رسله وجحودهم مسلكهم : هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون بما جئتهم به من عند الله تعالى إلا يوما يعاينون فيه من عذاب الله مثل أيام أسلافهم الذين كانوا على مثل ما هم عليه من الشرك والتكذيب .

والخلاصة ــ إنهم لا ينتظرون إلا مثل وقائعهم مع رسلهم مما بلغهم مبدؤه وغايته .

(قل فانتظروا إنى معكم من المنتظرين) أى قل لهم منذرا مهددا : انتظروا عقاب الله ونزول سخطه بكم ، إنى من المنتظرين هلاككم بالعقوبة التى تحل بكم ، وإنى على بينة بما وعد الله به وصدق وعده المرسلين ، وإن الذين يصرون على الجحود والعناد سيكونون من الهالكين .

(ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا) أى إن سنتنا فى رسلنا مع أقوامهم الذين يبلغونهم الدعوة ويقيمون عليهم الحجة وينذرونهم سوء عاقبة التكذيب فيؤمن بعض ويصر آخرون على الكفر ــ أن نهلك المكذبين وننجى رسلنا والذين آمنوا بهم .

(كذلك حقا علينا ننج المؤمنين) أى ومثل هذا الإنجاء ننجى المؤمنين معك أيها الرسول ونهلك المصرين على تكذيبك وعدا حقا علينا لا نخلفه كما قال تعالى « سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً » .

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى شَكٍّ مِنْ دِينِى فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَلَـكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَالاَ يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأدلة على صدقه فى رسالته وصحة الدين الذى جاء به و بسطها غاية البسط حتى لم يبق فيها مجال للشك ـ قفى على ذلك بالأمر بإظهار دينه ، و بإظهار الفارق بينه و بين ما هم عليه من عبادة الأوثان والأصنام التى لا تضر ولا تنفع و بيان أن الذى بيده النفع والضر هو الله الذى خلقهم .

الإيضاح

(قل يأيها الناس إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولـكن أعبد الله الذى يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين) أى قل لهم أيها

الرسول إن كنتم فى شك من دينى الذى أدعوكم إليه ولم يتبين لكم أنه الحق فاسمعوا وصفه واعرضوه على عقولكم وانظروا فيه لتعلموا أنه لامدخل فيه للشك ، وإنى لا أعبد الحجارة التى تعبدونها من دون إلهكم وخالقكم ، بل أعبد الله الذى يقبض الخلق فَيُمِيتهم إذا شاء وينفعهم ويضرهم إذا أراد ، ومثل هذا هو الحقيق بأن يعبد وأن يُخاف وأن يُتقى دون من لايقدر على شىء من ذلك .

وفى ذلك تعريض لطيف وإيماء إلى أن مثل هذا الدين لا يشك فيه ، وإنما ينبغى أن تشكوا فيما أنتم عليه من عبادة الأصنام التى لا تعقل ولا تضر ولا تنفع ، إذ عبادة الخالق لا يستنكرها ذوو الفطرة السليمة ، أما عبادة الأصنام فيستنكرها كل ذى لبّ وعقل سليم .

وقد أمرت أن أكون من المؤمنين الذين وعدهم الله بالنجاة من عذابه ، وينصرهم على أعدائهم واستخلافهم فى الأرض .

(وأن أقم وجهك للدين حنيفا) أى وأمرت أن أكون من المؤمنين وأمرت بأن أقيم وجهى للدين القيم الذى لا عوج فيه حال كونى حنيفا أى مائلا عن غيره من الشرك والباطل ، وذلك بالتوجه إلى الله وحده فى الدعاء وغيره بدون التفات إلى شىء سواه ، وعلى نحو هذه الآية جاء قوله « إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

فمن توجه قلبه إلى غيره فى عبادة من العبادات ولا سيما مُخّ العبادة وروحها وهو الدعاء فهو عابد له مشرك بالله ، ثم نهى الله رسوله عن ضد ذلك فقال :

(ولا تكونن من المشركين) أى ولا تكونن ممن يشرك فى عبادة ربه الآلهة والأنداد كأرباب الديانات الوثنية الباطلة الذين يجعلون بينهم وبين الله حجابا من الوسطاء والأولياء والشفعاء يوجهون قلوبهم إليهم عند الشدة تصيبهم والحاجة تستعصى عليهم ليقضوا لهم حاجتهم إما بأنفسهم أو بشفاعتهم ووساطتهم عند ربهم ، فإن فعلت ذلك كنت من الهالكين .

(ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك) أى ولا تدع أيها الرسول غيره تعالى دعاء عبادة لا على سبيل الاستقلال ولا على سبيل الاشتراك بوساطة الشفعاء ـ مالا ينفعك فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ولا يضرك إن تركت دعاءه ولا إن دعوت غيره .

(فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين) أى فإن فعلت هذا ودعوت غيره كنت فى هذه الحال من الذين ظلموا أنفسهم ، ولا ظلم لها أكبر من الشرك بالله تعالى ، فدعاء الله وحده أعظم العبادات ، ودعاء غيره شرك وظلم للنفس لإضافة التصرف إلى ما لا يصدر منه ، فهو وضع للشىء فى غير موضعه ، وقد جاء فى معنى الآية آيات كثيرة متفرقة فى السور لانتزاع هذا الشرك من قلوب السواد الأعظم من الناس ، وقد انتزع من قلوب الذين أخذوا دينهم من كتاب ربهم ، وكانت عبادتهم له دعاءه بالغدو والآصال والليل والنهار ، وفيها نعى على الذين هجروا تدبر القرآن وتلقوا عقائدهم من الآباء والأمهات والمعاشرين الأميين الجاهليين فتوجهوا إلى القبور فزينوها بالسرج والمصابيح ودعوها من دون الله وتقربوا إليها بالهدايا والنذور لتكشف عنهم الضر وتعطيهم ما يرجون من النفع ، ويتأولون هذه الآيات الكثيرة فيزعمون أنها خاصة بعبادة الأصنام والنذر للأوثان ، والتعظيم للصلبان ، كأن الشرك بالله جائز من بعض المخلوقين دون بعض .

ثم أكد سبحانه المعنى السالف ودحض شبهة الذين يدعون غير الله لأنهم طالما استفادوا من دعائهم والاستغاثة بهم فشفيت أمراضهم وكشف الضر عنهم فقال :

(وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو) أى وإن يمسسك الله أيها الإنسان بضر كمرض يصيبك بمخالفة سننه فى حفظ الصحة ، أو نقص فى الأموال والثمرات بأسباب لك فيها عبرة ، أو ظلم يقع عليك من غيرك ، فلا كاشف له إلا هو ، وقد جعل الله للأشياء أسبابا يعرفها خلقه بتجاربهم ككشف الأمراض بمعرفة أسبابها

ومعرفة خواص العقاقير التى تداوى بها ، فعلينا أن نطلبها من الأسباب ونأتى البيوت من الأبواب ونتوجه إلى الله وحده وندعوه مخلصين له متوكلين عليه .

(وإن يردك بخير فلا رادّ لفضله يصيب به من يشاء من عباده) أى وإن يردك ربك برخاء ونعمة وعافية فلا يقدر أحد أن يحول بينك وبين فضله الذى تعلقت به إرادته تعالى ، فما شاء كان حتما ، فلا يرجى خير ونفع إلا من فضله ، ولا يخاف ردّ ما يريده ، فهو يصيب بالخير من يشاء من عباده بكسب أو بغير كسب ، وبسبب ماقدره فى السنن العامة وبغير سبب ، ففضله تعالى على عباده عام بعموم رحمته ، بخلاف الضر فإنه لايقع إلا بسبب من الأسباب الخاصة بكسب العبد أوالعامة فى نظام الخلق كالأمراض التى تعرض بترك أسباب الصحة والوقاية جهلا أو تقصيرا ، وفساد العمران وسقوط الدول الذى يقع بترك العدل وكثرة الظلم .

(وهو الغفور الرحيم) أى وهو الغفور لذنوب من تاب وأناب من عباده من كفره وشركه إلى الإيمان به وطاعته ، الرحيم بمن آمن به منهم فلايعذبه بعد التوبة ولولا مغفرته الواسعة ورحمته العامة لأهلك الناس جميعا بذنوبهم فى الدنيا قبل الآخرة كما قال تعالى : «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ» وقال : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ » .

قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ . وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)

المعنى الجملى

بعد أن قرر سبحانه دلائل التوحيد والنبوة والمعاد - ختم السورة بهذا البلاغ للناس كافة بمقتضى البعثة العامة ، وهو إجمال لما تقدم من التفصيل فيها .

الإيضاح

(قل يأيها الناس قدجاءكم الحق من ربكم) أى قل لهم أيها الرسول مخاطبا جميع الناس من حضر منهم فسمع هذه الدعوة منك ومن ستبلغه عنك : قد جاءكم الحق المبين لحقيقة هذا الدين ، وقد أوحى به إلى رجل منكم ، وكان خفيا عنكم بما جهل من دعوة الرسل السالفين أو حرّف و بدل ، ففصله هذا الكتاب العربى المبين .

(فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه) أى فمن سلك سبيل الحق وصدق بما جاء من عند الله فى كتابه الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه ، كأنما فائدة ذلك عائدة إليه لأنه يفوز بالسعادة فى دنياه ودينه ، وذلك إنما يكون بعمله لا بعمل غيره ولا بتأثيره بشفاعته أو وساطته .

(ومن ضل فإنما يضل عليها) أى ومن اعوجّ عن الحق الذى أتاه من عند الله وأعرض عن كتابه وعن آياته فى الأنفس والآفاق ، فإنما وبال ضلاله على نفسه بما يفوته من فوائد الاهتداء فى الدنيا وما يصيبه من العذاب على كفره وجرائمه فى الآخرة .

(وما أنا عليكم بوكيل) أى وما أنا بموكَّل من عند الله بأموركم ولا بمسيطر عليكم فأكرهكم على الإيمان ، وأمنعكم بقوتى من الكفر والعصيان ولا أملك لكم ضرا ولانفعا ، وما أنا إلا رسول مبلغ إليكم أمر ربكم ، بشير لمن اهتدى ونذير لمن ضل وغوى ، وقد أعذر من أنذر .

(واتبع مايوحى إليك واصبر حتى يحكم الله) أى واتبع أيها الرسول وحى الله الذى أنزله إليك فى كتابه واعمل به وعلمه أمتك واصبر على مايصيبك من الأذى

والمكاره ، وعلى ما ينالك من قومك حتى يقضى الله بينك و بين المكذبين لك وينجز لك ما وعدك .

(وهو خير الحاكمين) أى وهو خير القاضين وأعدل الفاصلين ، فهو لا يحكم إلا بالحق، وغيره قد يحكم بالباطل إما لجهله بالحق أو مخالفته له باتباع الهوى ، وقد امتثل رسوله أمر ربه وصبر حتى حكم الله بينه و بين قومه وأنجز وعده له صلى الله عليه وسلم ولمن اتبعه من المؤمنين ، فاستخلفهم فى الأرض وجعلهم الأئمة الوارثين ما أقاموا الدين.

وغير خاف ما فى هذه الآيات من التسلية لنبيه ووعده للمؤمنين ووعيده الكافرين .

سورة هود عليه السلام

وهى مكية كالتى قبلها ، وعدد آيها ثلاث وعشرون ومائة ، نزلت بعد سورة يونس ، وتضمنت ماتضمنته تلك من أصول الإسلام، وهى التوحيد والنبوة والبعث والحساب والجزاء .

وفصل فيها ما أجمل فى سابقتها من قصص الرسل عليهم السلام وهى مناسبة لها فى فاتحتها وخاتمتها وتفصيل الدعوة فى أثنائها ، فقد افتتحتا بذكر القرآن بعد (الر) وذكر رسالة النبي المبلغ عن ربه ، وبيان أن وظيفة الرسول إنما هى التبشير والإنذار وفى أثنائهما ذكر التحدى بالقرآن والرد على الذين زعموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد افتراه ، وَمُحَاجَّةُ المشركين فى أصول الدين ، وختمتا بخطاب الناس بالدعوة إلى ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فى الأولى بالصبر حتى يحكم الله بينه وبين الكافرين ، وفى الثانية بانتظار هذا الحكم منه تعالى مع الاستقامة على عبادته والتوكل عليه .

وعلى الجملة فقد أجمل فى كل منهما مافصل فى الأخرى مع فوائد انفردت بها كل منهما ، فقد اتفقتا موضوعا فى الأكثر واختلفتا نظما وأسلوبا مما لامجال للشك فى أنهما من كلام الرحمن ، الذى علم الإنسان البيان .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ

كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ(٣) إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٤)

شرح المفردات

(الر) تقدم أن قلنا إنها حرف تنبيه كألا وتقرأ بأسمائها ساكنة فيقال : (أَلِفْ لَامْ ، رَا) وإحكام البناء كالقصر والحصن : إتقانه حتى لا يقع فيه خلل ، وتفصيل العقد بالفرائد : جعل خرزة أو مرجانة بلون بين كل خرزتين من لون آخر ، والمتاع : كل ما ينتفع به فى المعيشة وحاجة البيوت ، والأجل المسمى : هو العمر المقدر .

المعنى الجملى

جاءت هـذه الآيات فى أصول الدين وهى القرآن وما بيّن فيه من توحيد الله وعبادته وحده والإيمان برسله والبعث والجزاء فى اليوم الآخر .

الإيضاح

(الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) أى هذا كتاب عظيم الشأن جليل القدر ، جعلت آياته محكمة النظم والتأليف واضحة المعانى لا تقبل شكا ولا تأويلا ولا تبديلا كأنها الحصن المنيع الذى لا يتطرق إليه خلل - وجعلت فصولا متفرقة فى سورة تبين حقائق العقائد والأحكام والمواعظ وجميع ما أنزل له الكتاب من الحكم والفوائد فكأنها العقد المفصل بالفرائد ، ولا عجب فقد أنزلت من لدن حكيم يقدر حاجة عباده ويعطيهم ما فيه الخير لهم ، خبير بعواقب ذلك ومصادره وموارده .

(ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير) أى أحكمت وفصلت بألا تعبدوا إلا الله ، أى نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له ،

وهذا كقوله : « وماَ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ » وقوله : « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ » وقل للناس إنى من عند الله نذير ينذركم عقابه ، ويبشركم ثوابه على طاعته والإخلاص له .

وهذا بيان لوظيفة الرسالة، ومبين لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم.

(وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى) أى واسألوه أن يغفر لكم ما كان منكم من أعمال الشرك والكفر والإجرام ، ثم ارجعوا إليه بإخلاص العبادة له دون سواه مما تعبدون من دونه من الأصنام والأوثان.

فإن فعلتم ذلك واستغفرتم من كل ذنب وتبتم من الإعراض عن هدايته وتنكب سننه يمتعكم فى دنياكم متاعا حسنا فيرزقكم من زينة الدنيا وينسأ لكم فى آجالكم إلى الوقت الذى قضى عليكم فيه الموت وهو العمر المقدر لكم فى علمه المكتوب فى نظام الخليقة وسنن الاجتماع البشرى فى عباده ، ولا يقطعه بعذاب الاستئصال ولا بفساد العمران ولا ينقصه ما ينقص من أدمن على الشرك والمعاصى .

ذاك أن الله ماحرم إلا الأشياء الضارة بالعقل أو بالصحة أو بنظام الاجتماع المالى أو البدنى ، وإنما يكمل ضررها بإصرار فاعليها عليها ، فإذا أقلعوا عنها وندموا على مافعلوا وبادروا إلى التوبة من قريب ، امتنع ذلك الفساد .

وهذه سنة مطردة فى ذنوب الأمم ، وهى فيها أظهر من ذنوب الأفراد ، فالمشاهد أن الأمم التى تصر على الظلم والفسوق والعصيان يهلكها الله تعالى فى الدنيا بالضعف والشقاق وخراب العمران حتى تزول منعتها وتتمزق وحدتها .

(ويؤت كل ذى فضل فضله) أى وإن تجتنبوا الشرك وتؤمنوا بالله وتستغفروه يمتعكم متاعا حسنا تكونون به خير الأمم نعمة وقوة وعزة ويعط كل ذى فضل من علم وعمل جزاء فضله ، أما فى الآخرة فهو مطرد دائما ، وأما فى الدنيا فقد يكون ناقصا مشوبا بأكدار ولا يكون مطردا لقصر أعمار الأفراد .

(وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير) أى وإن توليتم وأعرضتم عما دعوتكم إليه من عبادة الله وحده وعدم عبادة غيره فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير الهول شديد البأس ، فيصيبكم مثل ما أصاب أقوام الرسل الذين عاندوهم وأصروا على تكذيبهم وعصيانهم ، أو قريب منه بعد نصر الرسول والمؤمنين .

(إلى الله مرجعكم وهو على كل شىء قدير) أى إليه تعالى رجوعكم بعد موتكم جميعا أمماً وأفرادا لا يتخلف منكم أحد ، وحينئذ تلقون جزاءكم بالعدل والقسطاس ، وهو سبحانه قدير على كل شىء .

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥)

شرح المفردات

ثنى الشىء : عطف بعضه على بعض فطواه، وإثناء الثوب : إطواؤه، وثناه عنه: لواه وحوله ، وثناه عليه : أطبقه وطواه ليخفيه فيه ، وثنى عنانه عنى : تحول وأعرض والاستخفاء : محاولة الخفاء ، واستغشى الثوب تغطى به كما قال حكاية عن نوح عليه السلام : « وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا » .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنهم إن أعرضوا حاق بهم عذاب يوم كبير ــ بين فى هذه الآية حالهم وصفتهم العجيبة الدالة على إعراض الحيرة والعجز ومنتهى الجهل .

الايضاح

(ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه) أى إن هؤلاء الكافرين الكارهين لدعوة التوحيد يحنون ظهورهم وينكسون رءوسهم كأنهم يحاولون طىّ صدورهم على بطونهم حين سماع القرآن ليستخفوا منه صلى الله عليه وسلم حين تلاوته فلا يراهم حين نزول هذه القوارع على رءوسهم ، روى ابن جرير وغيره أن ابن شداد قال : كان أحدهم إذا مر بالنبى صلى الله عليه وسلم ثنى صدره كيلا يراه أحد .

(ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم مايسرون وما يعلنون) أى إن ثنى صدورهم وتنكيس رءوسهم ليستخفوا من الداعى لهم إلى توحيد ربهم لايغنى عنهم شيئا ، فإن ربهم يعلم مايسرون ليلاً حين يستغشون ثيابهم فيغطون بها جميع أبدانهم ، ثم مايعلنون نهارا .

(إنه عليم بذات الصدور) أى إنه تعالى عليم بأسرار الصدور وخواطر القلوب فاحذروا أن يطلع عليكم ربكم وأنتم مضمرون فى صدوركم الشك فى شىء من توحيده أو أمره أو نهيه .

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين .

تمت مسودة هذا الجزء فى السادس والعشرين من ذى الحجة سنة اثنتين وستين وثلثمائة وألف هجرية بمدينة حلوان من أرباض القاهرة قاعدة الديار المصرية .

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء